أنيس منصور

مواقف ٢

أنيس منصور

مقالات

مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى

يناير ١٩٨٨

الغلاف: بريشة الفنان مصطفى حسين

الإشراف الفني: إبراهيم فريح

رأيت وسمعت الرئيس الأمريكى رونالد ريجان يكاد يبكى وهو يحدث الشعب الأمريكى عن قصة الأتصال بايران من وراء ظهر كل المؤسسات الدستورية فتذكرت الرئيس عبدالناصر يوم التنحى فى ١١ يونية ١٩٦٧ كان ذبيح الصوت شاحب الوجه يقطر حزناً ومرارة.

فقد فوجىء الشعب الأمريكى بأن حكومته التى تهاجم الأرهاب وتضرب ليبيا وتعاقب سوريا وتهدد حليفتها فى كل مكان تدفع ثمناً غالياً للأفراج عن أحدى الرهائن الأمريكان مقابل كمية من الأسلحة والذخائر حملتها سفينة دينماركية من اسرائيل. إذن أمريكا تقاوم الأرهاب علناً وتشجعه سراً. فتدفع «فدية» من الأسلحة لأحد مواطنيها. كذاب ـ إذن ـ رئيس أمريكا.

وأعلنت المخابرات المركزية أنها كانت تعلم ولكن لم تشارك. وأعلن وزير الخارجية شولتز أنه لم يكن يعلم وأنه سوف يستقيل. وفجأة أعلن الرئيس الامريكى أن شيئاً من كل ذلك لم يحدث فالمخابرات كانت تعلم وتشارك والا تصالات قد تمت بعلمها وشولتز عدل عن استقالته. والهدف هو تشجيع للأجنحة المعتدلة فى ايران وتطبيقاً لقاعدة انه لا قطع للعلاقات بين الدول مهما كانت متقاتلة. فلا بد أن يبقى خيط، أو ان يبقى ثقب فى الحائط مهما كان صغيراً. وحول الأرض تدور وتصور أقمار التجسس على كل الدول. فلا سر يمكن أخفاؤه.

ثم أنكرت ايران كل ما حدث!

وحتى لو كان الرئيس حسن النية فإن النية الطيبة ليست من قواعد اللعبة السياسية ويستحيل ان يكون الرئيس الأمريكى وكل مستشاريه بهذه السذاجة عندما يتصورون أنهم جميعاً يحكمون شعباً من الأغنام. وقد أعلن الرئيس الأمريكى الحقيقة وبقى ان يتحقق الناس من صحة أقواله: هل هو متهم أو برىء ان محاكمته علناً أو سراً مستمرة!

■ ■ ■

قال شوقى : جاذبتنى ثوبى العصى وقالت
أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهن هواء !

أما ان الناس هم الشعراء ، أى الفنانون والذين عندهم قلب يحزن ويفرح ويتوجع وينزف شعراً ونثراً .. وأن العذارى أرق من هؤلاءالشعراء ، وشوقى يطلب الرحمة بالجميلات .. ولا يطلب من الجميلات الرحمة بالشعراء الذين هم الناس !

ولأن السياسة هى سموم الحياة ، فقد نفذت إلى قلوب الشعراء وجعلتهم يخوضون فى الكراهية والدسائس والدم والحرب .. لقد نسى الشعراء وجدانهم .. إلا قليلاً منهم ما يزال يتلمس قلبه الذى يدق و يئن . والأستاذ عبدالعزيز خميس السياسى القديم والمعتقل الخطير، ورئيس مؤسسة روز اليوسف هو واحد من الذين يتغنون بالحب والمحبوبة . وأصر على ذلك رغم دهشة الناس. ولكن كيف يخفى العشاق مواجعهم . وكيف يخفى الشعراء موسيقاهم .. فالشعر كالبرق فاضح للسحاب والسماء والأرض ..

أنه ليس شاعراً ، ولكنه شاعرى العبارة ، جرىء الحب ، يحمل قلبه على يديه فى كل اتجاه ويبكى ويريد رأياً عاماً . فكان له ما أراد . فقد أعتاد القراء على مقطوعاته الحزينة .

جاء فى كتابه « كلام فى الحب » المطبوع على الورق الوردى :

تعالى ننطلق بعيداً.

لا تصدقى هؤلاء الذين يصورون لك الواقع ورداً وزهراً.. لا تصدقيهم فالواقع أليم حزين مقيت.. فأنا بعيد عنك.. وأنت بعيدة عنى. حقيقة.. بعدنا هو بعد الجسد عن الجسد.. وحقيقة.. ان روحينا فى تلاق وعناق دائم.. لكن الحب شعلة وضاءة.. فى حاجة إلى من يقودها.. وبالقرب وحده يتم الاشتعال ويزيد نور الحب. تعالى إلى حبى.. إلى حبك.. إلى النور.. إلى القرب..

غريب هذا الصوت الجميل، لأن الخير غريب والحب أغرب!

وإذا كانت الحياة مغامرة فإن الحب هو واحد من أكبر التحديات فى عالم لا يعرف الحب، ويرفض المحبين، ويتهم الحالمين.. ان الحب فراشة تسللت إلى عش الدبابير..!

ولذلك فكتاب الأستاذ عبد العزيز خميس فى دنيا السياسة: مخلوق هارب من الواقع.. وفى روضة الأدب عصفور له ريش متعدد الألوان والأغنيات..

وهى شهادة بميلاد شرعى لطفل عاشق.. وكل العشاق أطفال!

□ □ □

واضح ان أحداً لا يستطيع أن يساعد لبنان عسكرياً . ولكن الممكن للعرب هو الضغط الدبلوماسى على أمريكا ، لكى تضغط على اسرائيل . فهى القادرة الوحيدة على ذلك ، أو العاجزة دون ذلك !

إذن : فبعض العرب يرون ان الدبلوماسية هى الوسيلة الوحيدة لوقف الحرب . وبعض العرب يرون أن الدبلوماسية تدل على العجز العربى . ولكن هؤلاء لا يفعلون شيئاً غير ادانة الآخرين . وعلى ذلك فنحن أمام نفس الصورة التقليدية للموقف العربى : أناس يحاولون وأناس يحاولون هدم هذه المحاولة . فلا يملك الرئيس الأمريكى إلا ان ينتهى إلى هذه الحقيقة البسيطة ؛ ان ليس كل العرب ضد اسرائيل . وان بعض العرب ضد سوريا وضد المنظمات الفلسطينية ؛ فإذا فعلت أمريكا أى شىء فسوف تلقى تأييداً عربياً . ان ضغطت على اسرائيل ، أغضبت بعض العرب ، وان لم تفعل أسعدت بعض العرب . وليس رؤساء الدول الأوربية بعيدين عن الرئيس الأمريكى فى تصوره أو فيما يراه بعد ذلك من موقف ، أو انعدام للمواقف !

وكل ما تفعله أمريكا الآن هو ان تؤكد للسوفيت أنها لن تتدخل .. أى أنها تطلب إلى السوفيت أن تفعل مثلها . وهكذا تقف الدولتان العظميان بعيدتين عن التدخل العسكرى المباشر . وهذا معروف مقدماً . وهما فى نفس الوقت تتفقان على ما بعد الحرب ـــ أى ما بعد حرب الخليج

وحرب لبنان وحرب فوكلاند.. ثم تنشغل الدولتان بتطوير أسلحتهما القتالية لبيعها للشرق الأوسط أستعداداً لحرب جديدة بعد سنة أو سنتين!

وكأنه مكتوب على العرب ان يخرجوا من حرب ليدخلوا فى حرب، يساعدوا على حل الأزمات الأقتصادية فى الدول العظمى «المحبة للسلام» ؟!.

● ● ●

ولكنه شرف لنا ، كما أنه عار عظيم لقباني ولغيره من الذين باعوا أنفسهم وبلادهم .

من يدرى لعل الشاعر السورى جاء يتزود من فائض الحياء الذى يتدفق من وجوه الذين يلقونه ويتسترون عليه ويشعرون له ومعه بعظيم الأحتقار.

لكثرة الحروب فى العالم لم يعد أحد يهتز لها . ولكثرة المتاعب الشخصية لم تعد فى عيوننا دموع تسيل علـــى غيرنا .. ولكثرة الأقلام الحربية ، لم نعد نفرق بين الواقع والخيال بين الأفلام الفنية وبين الأفلام التسجيلية . بل أننا أصبحنا نتابع الأفلام الحربية ، لأنها عمل متقن ولذلك فهى شىء ممتع .

وكان من نتيجة ذلك أن مصائب الدنيا تقع فى كل مكان ونحن نتفرج عليها دون أن نشارك فيها إلا بالقليل من الأهتمام .

مشاكل اللاجئين على كثير من الحدود ــ اللاجئون الفلسطينيون ــ اللاجئون على حدود ايران والعراق .. اليمن واليمن الجنوبية والسودان .. تشاد والسودان .. على حدود أنجولا وروديسيا وأوغندا وزائير .. والهند وباكستان وبنجلاديش ..

وفضيحة الفضائح ؛ اللاجئون الفيتناميون . ان هذا المشهد يثيرنا ولكنه لا يهزنا فعندنا لاجئون فلسطينيون فى كل الدول العربية .. ولاجئون يرون أرضهم بعيونهم ، ولا يستطيعون أن يقتربوا منها .. وعرفنا اللاجئين والمهجرين المصريين من القناة إلى القرى والمدن المصرية ..

ولذلك فمتابعة أحداث اللاجئين الفيتناميين المشردين فى كل البحار ، والغارقين بالقرب من الشواطىء لا تهزنا كثيراً . وأن كان هذا مؤسفاً ان يحدث ، أن يتشرد هؤلاء ، وإلا نهتز لهم .

وإذا كان طرد الفيتناميين من بلادهم عملاً وحشياً ، فإن السكوت على ذلك ليس عملا وحشياً .. وإنما هو « بلادة عصبية » ـــ فقد رأينا ذلك كثيراً ولم نهتد إلى حل .

■ ■ ■

وسؤال أخر من أذاعة عالمية كانت هذه أجابتى عليه :

أنا أنتسب إلى الذين يتوكلون على الله . والذين يحمدون الله على كل شيء . ويمكنك أن تختار ألفاظاً أخرى لهذه المعانى فتقول : أننى متواكل . ممكن . ولن أعترض على هذه التسمية . لولا أننى أجد سبباً وجيهاً للأختلاف معك فى هذا الرأى .

فأنا أضع نفسى بين المجتهدين ، لأننى أعمل كثيراً . وأجد العمل واجباً ومتعة . وأقرأ كثيراً جداً ، أكثر مما أكتب . وأجد لذة فى ذلك . وأختار الساعات الصغيرة من أى يوم . من الرابعة صباحاً حتى العاشرة صيفاً وشتاء . وكنت أتمنى أن أقوم من النوم الساعة الثامنة أو حتى السابعة من أيام الأعياد والأجازات الرسمية . ولكن لم أفلح .

ولا تغيب الكتب الجديدة عن أمالى ثم عن عينى ، فى كل مجالات الفكر التى تهمنى : الفلسفة وعلم النفس والأدب والتاريخ والسياسة والدين والفن .. وأحمد الله أن عندى من ذلك عشرات الألوف . ولا أرى أن عشرات الألوف من الجنيهات التى أنفقها علي مدى العمر فى شرائها ، قد أضاعت وقتى وبددت مالى القليل ــ فالمثل يقول : ماضاع من مالك ماعلمك . وهو مثل صحيح . لولا أننى فى بعض الأحيان أشعر كأننى ماتعلمت ولا فهمت ولا قرأت ولا كتبت . وأندهش كيف أننى هكذا أقف عاجزاً أمام حكمة الله التى تغيب كثيراً عن عقلى الصغير المحدود ــ سبحان الله !

وكثيرون مثلى فى هذه الدنيا . يحمدون الله على الذى أعطاهم ، ولا يعذبون أنفسهم بالنظر إلى الذى أعطاه كثيراً لآخرين . أنها حكمة الله . أمنت بالله .

ثم إننى أتجه إلى الذى أعرفه فأكتب . وإلى الذى لا أعرفه فأقرأ . ويرضينى ذلك . ويبدو أن هذا الأخلاص فى العمل ، وهذا الصدق فى الأداء ، له ثمن عند الله وعند الناس . وهذا مايمكن ان تسميه الرضا . ومايسميه الناس بالتواكل والبلادة والتنبلة .

فإن كان هذا رأيك ، فإنني لا أعارضك .

ويكفى أننى مستريح نفسياً وعقلياً . أما هذا القلق الذى عندى فليس سخطاً ولا تبرماً ، وإنما هى حيرة الذى يعرف القليل ، وهذا طبيعى ، ويريد أن يعرف الكثير جداً ــ وهذا طبيعى أيضاً . والحمد لله !

قال لى وزير تعليم فى أمريكا: ان الذى يحدث فى مصر ليس له نظير. فخريج الجامعة يذهب فوراً إلى المدرسة يعلم التلامذة دون أن يتدرب على التدريس. وكذلك جميع المهندسين فى كل التخصصات. حتى الطبيب المصرى الذى يتدرب طويلاً قبل أن يمارس عمله الطبى، لم يتدرب بما فيه الكفاية.. وفى أستطاعتك أن تسأله عن عدد المرات التى كشف فيها على مريض.. وأن تسأله قبل ذلك أن كان قد رأى جثة كاملة أو استطاع أن يرى الأستاذ وهو يشرح أو حتى أنفرد بالأستاذ فى أية مناسبة لكى يفهم!

ونحن جميعاً نعرف ما الذى يدرسه التلميذ الذى يتوكأ على الدروس الخصوصية، ونعرف ما الذى يتعلمه الطالب فى الجامعة: مذكرات الأساتذة. فلا وقت عنده للقراءة الحرة العميقة ولا وقت عنده للتفكير والمستقبل.. طبيعى أن نجد الطالب المصرى يخطف المعلومات.. والدروس الخصوصية هى نوع من «الغش» ـ المدرس يحاول أن يغششه ما سوف يجيء فى الأمتحان والدولة تسكت على الدروس الخصوصية وترى أنها علاوات دورية للمدرس يقبضها من أولياء الأمور.

ثم أن الأمتحانات وما يدور فيها سراً وعلناً، هى ألوان وأشكال من الغش. والنتيجة: لا أحد استفاد وإنما جاء نجاحه دليلاً على أنه من غير الدروس الخصوصية والمذكرات التافهة ومن غير الغش لا نجاح فى الدراسة ولا فيما بعدها!

ولذلك ينادى الذين أفزعهم مصير الخريجين ومستقبل التعليم فى مصر بضرورة تدريب الخريجين عليِ أعمالهم الجديدة.. لابد من تصحيح مسارهم الذى ألتوى وأنحرف قبل أن نطالبهم بتقويم الأعوجاج والأنحراف ..

وقديماً حفظنا ولم نفهم . وفهمنا ونسينا ما قاله أبو الأسود الدؤلى :

يا أيها الرجل المعلم غيره .

فلا لنفسك كان ذا التعليم

فالمسافة كبيرة جداً بين الفصل وقاعة المحاضرات وبين الحياة ولابد من معرفة مشاكل التطبيق ومِواجهة هذه المشاكل بالمرونة والصبر والأصرار على النجاح .

● ● ●

الشكوى قديمة من الكتب المدرسية ــ شكلاً أى ورقاً وتغليفاً وتلويناً ــ ومضموناً أيضاً ــ أى موضوعها وأسلوبها .. ولكن من الواضح أن الكتب المدرسية لها عمر محدود . فهى بصعوبة تعيش سنة واحدة ، وبعد ذلك يتحول ورقها إلى عجين بين أدى التلاميذ . ولذلك فألقاؤها فى الزبالة هو النهاية المحتومة .

والكتب المدرسية لها شكل المدارس والأدراج والجدران والأبواب : صفراء هزيلة مكرمشة وكأنها صنعت من الطين الذى غسل فى الترع فى آخر لحظة ثم أدخل الأفران وتساقط عليه الهباب .. وبتعويذة سحرية ، تحولت ذرات الهباب إلى سطور وعندما تمسحها قطرات العرق والدموع يكون العام الدراسى قد أنتهى !

فليس لها شكل ولا فيها ذوق . وإنما هى ترتبط فى خيال التلميذ بكل كراهية التلاميذ للأمتحانات والمواصلات وأزمة السكن ..

وقد سمعت من سفيرنا فى باريس سمير صفوت أنهم فى أمريكا لا يوزعون على التلاميذ كتباً جديدة كل سنة . وإنما التلاميذ يتركون كتبهم لزملائهم . الكتب نظيفة وفى آخر كل كتاب ورقة مكتوب عليها أسماء أصحاب هذا الكتاب واحداً بعد واحد .. ولذلك فكل واحد حريص على أن يظل الكتاب نظيفاً سليماً .. كأن أحداً لم يقلبه .

وهذا أرخص فى التكلفة .. ثم ما أعظم الدروس المستفادة من الحرص على كتاب أبيض جميل .. الحرص على نظافته وسلامته والحرص على

صورة التلميذ الذى سوف يضع أسمه إلى قائمة الشرف التى فى نهاية كل كتاب .

قال لى السفير سمير صفوت إنه يمكن رؤية كتاب عمره عشر سنوات .. قد يتغير لون الورق ولكن من المؤكد ان ليس بالكتاب علامة بالقلم واحدة ولا نقطة حبر. وهكذا قضوا على مشكلة الكتاب المدرسى القبيح الوجه ، وعلى مشكلة توزيع الكتب مع بداية العام الدراسى .

وما يقال على الكتاب المدرسى يقال على الخرائط واللعب وعلى نوافذ وأبواب وأدراج وأرضية الفصول وحديقة المدرسة والمكتبة العامة والمطاعم — إنها مسئولية جماعية جادة تبدأ وتنمو مع الطفولة إلى الرجولة !

لو أننا أحرقنا خريطة الشرق الأوسط، ووضعنا الرماد فى قليل من الماء ثم وضعناه على النار وصببناه فى فنجان وشربناه.. وهززنا الفنجان.. وأعطيناه بعد ذلك لقارئة الفنجان. وقلنا لها: قولى لنا يا ست الحاجة ماذا ترين؟

لن يختلف كلام قارئة الفنجان عن الذى يقوله أكثر السياسيين علماً وحكمة ودراية بما يحدث فى الشرق الأوسط.

فإذا قالت لك: هناك سكة سفر بين الخرطوم وطرابلس، فهى صادقة فيما تقول: فالطريق أنفتح فجأة بين السودان وليبيا وأنفتح بينهما وبين تشاد. وبين الدول الثلاثة وبين النيجر. وبينهما جميعاً وبين أثيوبيا والصومال.

فهل أنفتح الطريق بين السعودية وليبيا؟ يقال: أنفتح. وهل تناولا الرسائل؟ تقول قارئة الفنجان: حدث بعد نقطتين!

وهل ما بين سوريا والسوفييت يرضى السعودية؟ ثم ما هى حدود الرضا والأمان فى العلاقات السورية الروسية.. هل أقتراب سوريا من روسيا، يبعد سوريا عن جيب السعودية يقال: مستحيل. إذن ما هى العلاقة الممكنة التى ترتضيها السعودية وأمريكا بين دمشق وموسكو؟ هل الذى بين سوريا والأردن خراب أو عمار.. ثم ما معنى الخراب؟

هل الأردن الذى على أتصال باسرائيل من أيام الملك عبد الله وحتى

أوائل يناير الماضى لايزال ينتظر حتى لن يتورط فى شىء؟ ثم ما هو مفهوم الورطة؟ هل هى مصر؟ سوريا؟ اسرائيل؟

ان قارئة الفنجان تنظر إلى جانب آخر من الفنجان لتقول: أننى أرى سكة سفر بين الجزائر وواشنطن.. لماذا؟ والجواب: أنهم جميعاً يذهبون إلى واشنطون لشراء السلاح أو لقبض ثمن البترول الذى يشترون به سلاحاً من روسيا.

ولو قالت لك قارئة الفنجان أنها ترى صفاً من الجنود فى أثيوبيا يطلقون النار على الصومال المسلمة. وكان هذا الصف يضم الليبى والكوبى والأثيوبى والاسرائيلى واليمنى والروسى والسودانى الذى يحمل راية بيضاء. وكلهم ضد الصومال.. ثم قالت لك: ان الصومال دولة معتدية. فهل تصدق ذلك؟

■ ■ ■

جلالة الامام أحمد ملك اليمن كان رجلاً ذكياً ، ويقال كان ظريفاً . ففى أحد المؤتمرات الصحفية سألوه : كم يبلغ عدد سكان اليمن ؟ فأجاب بسرعة : ما شاء الله ما بين خمسة ملايين وأربعين مليوناً !

وضحك وضحكنا أيضاً . ولا يحق لنا أن نضحك الآن فليست لدينا إلا مثل هذه الأجابة إذا ما سئلنا عن عدد سكان مصر . فنحن نقول ما بين خمسين وواحد وخمسين أو أثنين وخمسين مليوناً !

فنحن نزيد مليوناً كل تسعة شهور وغداً كل ثمانية وبعد غد كل سبعة ..

فلابد ان تكون هذه الدعاية مضحكة . فهى مثل كل النكت نسمعها مرة ، وتصبح بايخة بعد ذلك . وأما ان الذين نتوجه إليهم بهذه الدعاية لايرونها ولا يسمعونها . لأنهم أميون . أو لأنها تتعارض مع مصالحهم الحيوية . فلا توجد وسيلة لأقناع العامل والفلاح بان يتوقف عند ثلاثة أطفال ، إذا كان الطفل عندما يبلغ التاسعة من عمره يتقاضى فى الحقل ما يتقاضاه الوزير فى مكتبه وفى زياراته التفتيشية وفى جلسات مجلسى الشعب والشورى ، ملعوناً فى كل صحف المعارضة !

أما المثقفون فهم أكثر ادراكاً لفداحة ان يكون لديهم طفل واحد . فهو لا يقدر على اطعامه وتعليمه وعلاجه . وإذا أضاف مرتبه إلى مرتب زوجته العاملة ــ ولابد ان تعمل ــ فإن هذا لا يكفى مرتب خادمة أو دادة . ولذلك فهو غير قادر على ولادة طفل . وغير قادر على ان يتزوج . وغير قادر

على الزواج فليست لديه شقة. وغير ممكن ان تكون لديه إذا كان عاجزاً عن دفع الخلو والتمليك.. وكيف ومرتبه كما تعرف!

وإذا وجد الخلو ووجد الشقة من غرفتين، فمن المؤكد أنه لا يستطيع ان يملأها بالأطفال ــ فالشقق الصغيرة تحدد عدد السكان.. وعدد الأطفال!

وكما ان المثقفين جادون فى تأخير الزواج، فإن أبناء الريف جادون أيضاً فى زيادة عدد الأطفال.

أما كيف استطاعت الهند (٧٠٠ مليون) والصين (ألف مليون) أن توقف الزيادة فى السكان، فهذا ما يجب ان نعلمه ونتعلمه. فإذا قررنا ذلك بقى أمامنا القرار الصعب جداً: وهو ان نكون جادين قاطعين ــ وهذا ما لم نرتفع إلى مستواه بعد!

□ □ □

من عشرين عاماً كنت أشغل فراغى باعداد برامج تليفزيونية . من بينها برنامج «أهلاً وسهلاً» ولكن ضيف الحلقة هو القارىء الشيخ مصطفى إسماعيل . جلست إليه نتفق على ما يقال وما لا يقال . ولماذا ؟

وأختلفت معه تماماً فى أن يتحدث عن حياته فيقول إنها بلا متاعب ولا مشاكل .. وإن الله قد أعد له سلماً ، وهو يصعد السلم بانتظام .. أو أنه يقف على السلم والسلم هو الذى يرتفع به إلى القمة !

وعرضت عليه حججاً كثيرة لم يأخذ بواحدة منها . مثلاً قلت له يجب أن يتحدث عن الصعوبات ، وإنه بالصبر والأصرار وتوفيق من الله والأستقامة تغلب عليها . وبذلك يشعر كل صاحب مشكلة أن السبيل إلى حلها بالصبر عليها والأرادة والتوكل على الله والتمسك بالقيم الأخلاقية . ولكن إذا قال إنه لم تكن له مشكلة ، أحس الناس ان هناك نوعين من البشر : أناس يولدون مشاكل ، وأناس يولدون حلولاً .. وان هناك تعساء أبدا ، وسعداء أبدا .. وأن التعيس تعيس من يومه ، والسعيد سعيد من يومه !

ويوم التسجيل قال : والله ما عندى مشكلة من أى نوع ولا فى أى وقت .. ولكن الأستاذ أنيس هو الذى يريد أن يغرقنى فى المشاكل .. الخ

وحذفت السؤال والأجابة ..

والمعنى : أنه لا بد أن تكون حكمة .. عبرة .. عظة يتعلم منها الناس شيئاً . ولا بد أن تقول لكل تعبان ، أنه ليس الوحيد فى الدنيا ، وأن الذى

عنده أمل ، سوف يتحقق هذا الأمل .. وقد تحقق لملايين قبلك وبعدك .. فالمشاكل كالعرق لابد أن يفرزه الجسم وهو يعمل . وكما يمكن تخفيف العرق ، يمكن للمشاكل أيضاً .. وأنت تمشى على قدميك الآن بلا جهد . ولكن هذا السير لم يتحقق إلا بعد أن حفوت على الأرض ووقعت وسالت دماؤك وتساندت على المقاعد والجدران ــ وهذا واجب كل من يطلب إلى الناس أن يتمددوا أمامه ويفتحوا أفواههم ويخرجوا لسانهم ويقولوا : آه ..

وكلنا أطباء فى مصحات متنوعة !

● ● ●

نحن فى زمن المعلبات : الفواكه والخضروات واللحوم والعصير.. بل أننا نضع الوجبات الكاملة فى العلب أيضاً. توفيراً للوقت. والمال. فسيدة البيت عاملة. ولذلك ليس عندها وقت لكى تقشر وتحشو وتسلق. كل ذلك جاهز فى السوبر ماركت. وليس عليها إلا أن تمر على السوق وتشترى. وهى تغير ملابسها يكون الفرن قد أشاع الحياة والنكهة فى الطعام. وفى بلاد أخرى تستطيع السيدة العاملة أن تتصل بالمطبخ تليفونياً، فتنطلق الأشعة فوق البنفسجية تطهو الطعام الذى وضعته بالأفران فى اليوم السابق.. ونحن فى زمن المعلبات الثقافية والفنية أيضاً: الكاستات المسموعة والكاستات المرئية.. فبدلاً من أن أقرأ كتاباً أستمع إليه مسجلاً.. وأستمع إلى الموسيقى والأغانى، بدلاً من الذهاب إلى الحفلات.. وأرى المسرحيات والأفلام بدلاً من أن أذهب إلى المسرح أو السينما ــ أرى ذلك وأسمعه وأنا فى البيت أو فى السيارة أو فى المكتب وفى أى وقت، أثناء النوم أو أثناء الأكل ــ على حريتى، دون قيد من أحد أو من مكان أو من زمان..

وكما ان الناس ضاقوا بالمعلبات وراحوا يطبخون لأنفسهم ويأكلون فى المطاعم وفى الأندية.. ويفضلون تقشير البرتقال على العصير، فإنهم أيضاً يجدون متعة فى قراءة الكتب والمسرحيات. يقرأون ويقلبون ويتخيلون الأبطال والديكور على هواهم.. فيصبح القارىء هو الممثل والمخرج والمنتج والمتفرج.. وهم أيضاً يذهبون إلى المسارح ليشاهدوا الباليه والمسرحيات والأوبرات.. وفى ذلك سخط على المعلبات وحرية للحركة، وعودة إلى

الطبيعة .. فالإنسان حيوان اجتماعي .. وإذا كان ينفرد بنفسه أحياناً ، فلكى يعود إلى النفس أشد تمسكاً منهم وحرصاً عليهم .. ومن هنا كان الأقبال على المسارح الذى يجب أن نشجعه ، وان نشجع الناس على أن يكونوا أناساً بشراً .. بعد ان تحققت علاقاتهم العامة ، فصاروا معلبات تعيش على المعلبات !

أكثر التعبيرات شعبية فى مصر: ماشى .. تمام .. ماشى !

ولا بد أن نكون قد أستخدمنا هذا اللفظ منذ الوحدة مع سوريا .. وهى ترجمة عربية لتعبير فرنسى يدل على أنه ماشى .. ومعناه ان أمرك «ماشى» .. أو انه لن يتوقف شىء .. أو الذى نقوله يمشى من الكلام إلى الفعل .. وان رغباتك أوامر! مع أنه لا شىء يمشى. فكل شىء يتلكأ ويتلكع. وإلا ما كان هذا حالنا. وأنا لا أريد ان أذكرك بما يحدث لك عندما تذهب إلى أدارة حكومية. زحام. واناس يدوسون بعضهم البعض. واناس يتساقطون على مكاتبهم، يعطلون مصالح الناس .. أى يعترضون مسيرتها ــ فكل شىء يمشى إلى ان يصل إلى هؤلاء الناس فيتوقف ويتجمد ويموت !

وعندنا تعبير له شعبية أيضاً لا مشكلة .. مفيش مشكلة ! أى ان الذى تطلبه سوف يكون له حل. أطمئن. مع ان كل شىء مشكلة. وكل شىء ليس له حل أو له حل مؤقت لكى يتعقد بعد ذلك بلحظات وأيام. ولا بد ان هذا التعبير جاءنا من السفر إلى الخارج والأتصال المكثف بالأجانب.

وهم عندما يقولون: لا مشكلة ــ فعلاً لا مشكلة. أى لا توجد مشكلة ليس لها حل. فلا توجد مشكلة. وإنما كل شىء قد درسوه وفهموه وعرفوا الحل. لأن كل شىء يجب ان يمشى .. ان ينساب .. ان ينطلق .. فالحياة الأوربية والأمريكية تنساب .. تماماً كماء فى جدول من الحرير .. تجرى .. تتدفق .. أما نحن فالذى نقول أنه يمشى، لا يتحرك، والذى نعلن

أنه ليس مشكلة، هو معضلة! ولا شيء يضايقنى شخصياً إلا ان نسمع من يقول: مش مشكلة.

بل من الواجب أن ننظر إليها على أنها مشكلة، لكى نعرف أبعادها ونجد لها حلاً.. ولكن رفض المشكلة وأستنكارها ليس حلاً لها.. وإنما رفض لمعرفة أبعادها وأطرافها. فكل شيء مشكلة حتى نجد له حلاً. وكل شيء راكد لا يمشى، حتى ندفعه ونمهد له لينطلق مع خطوط الأنتاج اليومى!

أما كلمة «تمام» فهى كلمة يستخدمها العسكريون ومعناها بالضبط.. صحيح.. أو أن الأوامر نفذت.. وهذه الكلمة فقدت معناها ومبناها.. ولم تعد هى الكلمة «اللى هية»!؟

■ ■ ■

أوصى هذا الرجل قبل أن يموت بأن يكون قبره بلا أسوار. لماذا؟ لعلها آخر نكتة أطلقها لأنه ما الذى يخافه الميت، أو ما الذى يخافه أهل الفقيد ؟!

ولكن الشعب الذى أسعده هذا الرجل طويلاً، قد أعاد بناء قبره وجعل له أسواراً وحديقة. وهو القبر الوحيد الذى يزوره الناس ويتكلمون، وكلما جلسوا أطول ضحكوا أكثر. انه قبر جحا.. الذى يصادف اليوم مرور سبعة قرون على وفاته، عن ستة وسبعين عاماً!

أشتريت كتاباً لجحا لتسلية الصيام. وجلست على مقهى: أمامى الفوسفور الجميل. ووراءنا قصر «ضلمة بهجة» ـ أى الحديقة التى أقيمت على ردم البوسفور. فالضلمة هو الحشو المحشى والردم و«بهجة» معناها الحديقة. وجحا أسمه نصرالدين خوجة. وخوجة يعنى المدرس. فقد كان مدرساً وكان يطبق مبادىء الدراما الاغريقية فى ان الضحك يؤدى إلى تطهير النفس. وعاش جحا على أيام القائد المغولى تيمور لنك.

وجحا هو أول من قال: أنه فى عصر الطغيان لا شىء ينعش الانسان مثل الضحك. وشر البلية ما يضحك.. والطير يرقص مذبوحاً من الألم..

ويقال أن تيمور لنك دعاه إلى الغداء معه أياماً كثيرة. وسأله: هل تعجبك هذه الشوربة؟ فقال جحا: طبعاً.. وكان تيمور لنك قد ضاق بها فأمر بألا توضع أمامه ثم سأل جحا: ما رأيك فى الشوربة؟ فقال جحا:

سيئة تماماً. وأندهش تيمور لنك من هذا الموقف المتناقض فقال جحا: سيدى أننى أطيعك ولا أطيع الشوربة!

وقد نسبت إلى جحا ألوف النكات فى مصر وفى كل بلاد الشرق الأوسط.. والهدف واحد؛ ان يرسم أبتسامة على وجهك. فالدنيا كئيبة ــ شكراً!

□ □ □

لم أعرف أحداً مثل الرسام الهولندى فان جوخ قد أحس بعمق الدنيا حوله لدرجة الموت ــ أى لدرجة أنه شعر بأن كل شىء يريد أن يغرقه .. وان يدخل عينيه وأذنيه وأنفه وعقله وقلبه ، ثم ينحشر فى ذراعه لينتقل إلى فرشاته فيعبر عنه ..

وهذا الفنان هو الذى قال ان هناك أسلوبين لفهم الدنيا : ان تقرأ عنها أو تغرق فيها . وقد أختار هو أن يذوب فيها ..

وفى زماننا نحن لا نحتاج إلى أن نذهب إلى البحر لنلقى بأنفسنا فيه ، لعلنا نحس به ونفهمه ثم نعبر عنه . فالبحر يتدفق من الأذاعة والتليفزيون والصحف ..

ونحن فى بيوتنا نتلقى أمواجاً وعواصف من كل شىء . وهناك فارق كبير بين أن تذهب إلى البحر ، وبين أن يجىء إليك .

أما النتيجة فواحدة ؛ أننا غارقون فى أحداث السياسة والحرب الداخلية والخارجية ، غارقون فى محاولة أن نرتبط بكل ذلك ، وان نباعد بينها وبيننا ..

كما تؤدى العواصف إلى تعطيل الملاحة والطيران فكذلك تتعطل قراراتنا العقلية وتهتز إرادة الانسان فلا يستطيع أن يفعل هذا أو لا يفعل ذاك .. لأن نوعاً من الشلل قد أصاب الناس ــ فهم غير قادرين على أن يقرروا شيئاً أو يريدوا لأنفسهم أو لغيرهم .. ولذلك كان الاستسلام هو

الأسلوب الوحيد الذى يريحهم من أتخاذ القرار.. فهم يتركون لغيرهم أن يقرر لهم وان يختار لهم ـ حدث ذلك فى أمريكا وفى روسيا أيضاً !

وإذا أراد أحد أن ينجو بنفسه من هذا العذاب : عذاب الضياع فى خضم الأحداث والمعلومات واتخاذ القرارات فإنه يصنع لنفسه طوقاً للنجاة .

ويكون هذا الطوق من : اللامبالاة والأدمان والجنس والتعصب .. أى بالغياب عن الدنيا .. عن الناس والأشياء وعن الأحساس بالجمال والخير والحب والسلام ..

● ● ●

لم يحدثنا التاريخ عن اناس كرماء خفيفى الدم ، ولكن معظم البخلاء يبعثون على الضحك ؛ أم كلثوم وتوفيق الحكيم وعبدالرحمن بدوى واليهودى التقليدى .

وكتاب «البخلاء» للجاحظ متعة حقيقية . ولم يعرف الأدب العربى كتاباً عن «الكرماء» .. وإنما أكثر الكرماء سفهاء . لأنهم ينفقون من غير أموالهم . فلا يمكن ان أضحك على رجل دفعه الكرم أن يذبح أبنه لضيفه .. أو يرغم زوجته على أن تنام فى فراش زائر له ..

ولكنى أضحك على د. عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة فى مصر عندما بعثوا إليه ببلاص مش من البلد . فوضع البلاص ومعه الخادم وأقفل حنفيات المياه والباب الخارجى . وضمن بذلك ان الخادم لن يقرب من المش ما دام البيت خالياً من الماء ..

وأضحك على توفيق الحكيم الذى يدعو كل الناس بمنتهى الحماس ان يزوروه ليشربوا القهوة على حساب صلاح طاهر ونجيب محفوظ !

أو أن توفيق الحكيم إذا دخل مكاناً ورأى ساعة على الحائط فانه يخرج ساعته من جيبه ويوقفها توفيراً لها ــ أى لطاقتها واطالة فى عمرها !

وأمس فقط أدهشنى ان أجد أن أستاذنا العظيم الفيلسوف مارتن هيدجر كان بخيلاً . ولكن الرجل صاحب عبارة صعبة جداً ، وتراكيب شاقة .

والذين قد استوعبوا فلسفته قليلون فى هذه الدنيا ، وكلنا ندعى هذا الشرف. ولكن لم أعرف عنه خفة الدم أو حب النكتة.. لولا أننى قرأت وصف زوجته له عندما مات.. فقد أشار إليهم أن يطفئوا النور. وكانت آخر ورقة قرأها هى فاتورة النور، وقد لاحظ ان الأستهلاك قد زاد بضعة قروش — أضحكتنى أخيراً!

رأيت على شاشة التليفزيون فلاحين فى الصعيد يحرقون قصب السكر. وكان تعليق صاحب البرنامج : ان هذا غير وطنى ..

ولم يعرض التليفزيون فلاحين آخرين يتركون الكرنب فى الأرض حتى يجف أو يتعفن فلا تمتد إليه يد تقتلعه لتأكله مجاناً .. ولا الفلاحين الذين تركوا حطب القطن فى الأرض وفيه بعض القطن .

لقد أختفت إذن الأيدى التى تقطع أعواد القصب وتقتلع الكرنب وحطب القطن فأين ذهبت .

إلى المدينة لتعمل فى الفنادق أو فى البيوت أو فى الحكومة ، أو هاجرت إلى بلاد أخرى . وبعض الفلاحين يحاربون فى العراق فإذا وقع أحدهم فى أيدى القوات الايرانية ، أعدموه ولم يأخذوه أسير حرب. ، لأنه من القوات المرتزقة .

وفى الريف أرتفعت أجور الفلاحين : من خمسة جنيهات للطفل إلى عشرة جنيهات للرجل إن وجدته .. وكذلك عمال البيوت : أرتفعت أجورهم إلى مائة وخمسين ومائتى جنيه فى الشهر.

ولذلك فنحن نستورد عمالاً من بلاد أخرى ولا بد ان نفعل ذلك وبكميات أكبر، ما دام الفلاحون قد أختفوا من الأرض. وما دامت الأرض صغيرة يصعب خدمتها بالميكنة الزراعية . ولذلك فأحد الحلول هو انشاء « التعاونيات » حتى يمكن زرع مساحات كبيرة من الأرض وحصدها معاً .

أو نيسر شراء الآلات الميكانيكية الصغيرة بأقساط مزيحة.. وإلا فسوف تتكدس فى الحقل محاصيل أخرى..

فإذا نحن أضفنا إلى هذا التكدس والأهمال نقص خصوبة التربة وأرتفاع مستوى المياه الجوفية فإننا مقدمون على عجز مخيف فى انتاجية الأرض. وسوف تتكرر نفس المشكلة فى المجتمعات الجديدة التى هى «فتافيت» من الأرض الزراعية لن نجد لها عمالاً وفلاحين.. ان أخطر ما تواجهه مصر الزراعية هو انحسار الأرض الزراعية، وانحسار الأيدى العاملة وبوار من نوع جديد!

■ ■ ■

نحن لا نعرف «حرب الماء» ــ أى الحرب من أجل ماء الأنهار. ولكن اسرائيل والأردن ولبنان تعرف ذلك وتموت فى سبيل شربة الماء. وان لم يكن هذا السبب واضحاً فهو أحد الأسباب القوية. فالمياه قد جفت فى أنهار هذه الدول. والمياه الجوفية المالحة قد أرتفعت. ونسبة الملوحة فى البحيرات قد زادت. ولذلك يجب ان تشرب هذه البلاد من البحر ــ أى من «تحلية» مياه البحر، تحليها وتبخرها ثم تبردها بعد ذلك. كذلك تفعل الكويت وكانت قبل ذلك تحصل على الماء العذب من العراق، وتضيفه إلى الماء الذى أخذته من البحر...

وفى مصر نجد ان الأدوار العليا لا يصلها ماء الحنفية. بينما نرى النيل زاخراً بالماء أمام أعيننا. وبسبب ركود نهر النيل وقذارته، فإننا نشرب الآن مياهاً ارتوازية نسميها تجارياً بالمياه المعدنية. ومن المؤلم حقاً ان نستورد مياهاً للشرب من لبنان التى لم تتوقف عن القتال منذ عشر سنوات! والتى تستهلك من مياه الأنهار فى شهر ما يعادل أحتياجات نصف سكان شبرا فى يوم واحد!!

ونسمع ونقرأ عن الجفاف الذى أصاب الدول الافريقية: أثيوبيا والسودان والصومال وغيرها. فالأمطار قد نقصت فجفت الأرض وماتت المحاصيل..

ولكن ليس بعيداً ان يصيبنا الجفاف. وهناك رأى بان السد العالى، قد أنقذنا بمياهه المدخرة فى البحيرة.. ولكن من المحتمل ان نعرف الجفاف فى سنوات قادمة..

ولكى نواجه هذا الموقف الصعب يجب ان نستعد لذلك بضبط استهلاك الماء، أو إذا كنا هازلين ـ بانقاص المساحة الزراعية بتجريفها أو تبويرها أو تحويلها إلى مساكن، وهذا ما نحرص عليه رغم كل القوانين التى صدرت وسوف تصدر؟!.

□ □ □

لا أعرف آخر مرة ذهبت فيها إلى السينما ربما من سنوات أما أول مرة ذهبت فيها إلى السينما فقد كانت بعد تخرجى فى الجامعة مباشرة فلم أكن قد أكتشفت أن السينما هى أمتع وأروع ما أخترع الانسان ولكن هنا وبسبب الأرق الذى أشكوه وأحمد الله عليه فإننى أجلس إلى التليفزيون كل يوم للساعة الثالثة صباحاً، وأتفرج على الأفلام، ولا يكاد ينتهى فيلم حتى أتجه إلى قناة أخرى وثانية وثالثة ورابعة حتى يطلع النهار، ولا أعرف كيف يطلع النهار، فالتليفزيون الأمريكى قادر على أن يجعل أكثر الناس إيماناً ينسى مواعيد الصلاة والصلاة، ورغم أحداث كامب ديفيد ونيكاراجوا وايران، فإن التليفزيون قد أبتلع الناس جميعاً.

ومع طلوع الشمس إذا طلعت، تجىء الصحف، والصحيفة العادية فى أى يوم عبارة عن ١٢٠ صفحة، تصل إلى ضعف هذه المساحة يوم الأحد من كل أسبوع، وإذا تفرغ الانسان لقراءة الصحف فقط دون المجلات، والنظر إلى التليفزيون ومتابعة مباريات الكرة الصغيرة والكبيرة فإنه يعجز عن القيام بأى عمل.

ولا شىء يوجع قلبى إلا أن أقرأ عن الكتب الجديدة، ولا أستطيع أن أحصل عليها، ولكن الذى يوجع القلب والعقل معاً أن أجد كل هذه الكتب أمامى ثم لا أجد الوقت لقراءتها وأمامى الآن أكثر من مائة كتاب جديد صدرت هذا العام، والكتب كلها مكدسة، كأنها قوالب من الطوب الملون، أو علب من الصفيح، أو كأنها غير موجودة، فلم أعد أجد وقتاً لكى أمد يدى إليها وأقلبها وأرتمى عليها وأمامها وأنام على صدرها أو تنام

هى على صدرى ونروح معاً فى سماوات الفكر أو ما يهب الموج على الحضارة الانسانية .

ورأيت أكثر من ٢٠ فيلماً ، فالتليفزيون هو ذلك الحشيش الذى أدمنه مئات الملايين حتى أصبح عيونهم وأيديهم وأرجلهم وعقولهم ــ أنها أروع صور الاستبداد والارهاب العقلى لانسان العصر الحديث !

● ● ●

طلب منى ألا أذكر أسمه. فليس شخصاً هاماً فى أمريكا (٢٥٠ مليون نسمة) وإنما أحد الامريكان المصريين الناجحين. بدأ عاملاً فى ورشة. وانتقل إلى العمل فى احدى الصيدليات الليلية فاتسع وقته للقراءة. رفضت ابنة خالته ان تهاجر معه. أنتقل إلى العمل فى أحد الفنادق العائمة فى المكسيك.

وبعد المكسيك عمل على أحدى السفن بين كوبا وجزر بهامس. قرر ان يعود إلى مدينة بها مصريون كثيرون. أستشارهم حيروه. فقرر ان يفتح مطعم فول وطعمية فى شيكاغو. تقدم للزواج من مصرية جامعية رفضت لأنه بائع فول. وقال فى نفسه:

أنها لا تزال مصرية تحتقر العمل اليدوى!

تزوج من امريكية. قررت هى أن تدير المطعم وان يكمل هو تعليمه. دخل كلية الطب. وأصبح طبيباً للأمراض النفسية والعصبية. وله كتب، رأيته فى الصفوف الأولى بين المصريين الذين استمعوا إلى خطاب الرئيس حسنى مبارك. كان أكثرهم حرارة وأشدهم تصفيقاً.

لم يفلح فى أقناع زوجته بان تقفل المطعم. لقد باعته لمصرى آخر. وتفرغت لتربية أولاده الأربعة ثم سكرتيرة فى عيادته الكبيرة.

ولم ينتظر حتى أسأله عن معنى هذا الكفاح فقال: الفرق بين المصريين والأمريكان بسيط: نحن نرى أن الطريق إلى النجاح واحد.. وهم يرون

ان هناك ألف طريق.. نحن نرى أن الفشل نهائى. وهم يرون ان الفشل مرحلى. ونحن نرى ان النجاح مرحلى. وهم يرون أن النجاح نهائى.. فالنجاح يدفعك إلى نجاح أكبر وهكذا.. نحن نفكر كالأشجار نولد ونعيش ونموت فى مكان واحد.. وهم يفكرون كالطيور يولدون فى مكان ويعيشون فى مكان ويموتون فى مكان ثالث وهم يحلمون بمكان رابع..

أمله: ان تنتقل هذه العدوى إلى شباب مصر عن طريق الهجرة إلى الخارج أو زيارات المهاجرين إلى مصر!

في مواجهة الأحداث الكبيرة يحاول الناس أن يتفلسفوا. يتساءلون عن معنى الحياة، وان كانت لها حكمة.. ما الفرق بين من يموت جوعاً، ومن يموت من كثرة الأكل. أين ينتهى الأثنان وكيف؟

ويكون ذلك حديثاً فى جنازة أو قبل أو بعد ذلك.. ومن الممكن ان تحتبس الدموع فى العيون، حزناً على الفقيد، أو أى فقيد آخر أو على أنفسنا.. أو على أننا، مهما أدعينا العقل والحكمة، فنحن أوراق فى مهب عواصف القدر.. لا حول ولا طول ولا رأى ولا حيلة أمام هذه النهاية! ولا يزال ما قاله الشاعر شوقى صحيحاً:

إذا ما نفقت ومات الحمار

أبينك فرق وبين الحمار؟!

طبعاً لا فرق بين الحمار وراكب الحمار ـ أنها نفس النهاية فى الأرض طعام لديدان تموت وتكون هى الأخرى طعاماً للتراب الذى تنبت منه الأعشاب فتأكلها الأغنام ثم يأكلها الانسان ليعود تراباً بعد ذلك!

سألت جارى: المرحوم كان مريضاً بماذا؟

قال: مريض؟ لم يكن مريضاً. ولا مات فى حادثة. وإنما كانت وفاته أعجب من أى شىء فى هذه الدنيا التى لا معنىً ولا حكمة فيها..

قلت: سبحان الله!.. كان مريضاً بالموت.. فالموت يولد معنا.. فعندما نولد يبدأ العد التنازلى فى غددنا وخلايانا، ولكننا لا نسمع ذلك.. فالموت مرض أيضاً!

قال جارى: بل المريض كان أباه.. لا.. بل كان جده.. ذهب يزوره فوجد المرض قد ثقل عليه.. تأثر لذلك.. فعاد حزيناً إلى بيته.. مات! إذن لقد ذهب الطبيب الشاب يزور جده المريض. وأحزنه حال جده، ومات الطبيب وعاش المريض! ثم أشار بيده إلى رجل كبير فى السن يتساند يميناً وشمالاً ويمشى فى الجنازة.. أنه جده المريض يمشى فى جنازة حفيده الشاب الطبيب ــ سبحان الله!

وشاعرنا القديم قال صادقاً:

وكم من مريض نعاه الطبيب   إلى نفسه، وتولى كئيباً
فمات الطبيب وعاش المريض   فأضحى إلى الناس ينعى الطبيبا!

■ ■ ■

عندما رأيت نظافة ألمانيا. وزهور هولندا، ونظام بريطانيا، ومحلات البقالة فى أمريكا تمنيت أن أجد ذلك كله فى مصر.. أو فى مدينة المنصورة. ولا أنسى ما أصابنى بعد سنوات طويلة عندما زرت بلدتى المنصورة. ولم أكد أنزل إلى ميدان المحطة، حتى رحت أتلفت ورائى. كأنى خشيت أن يرانى أحد من الذين حدثتهم عن جمال بلدتى، وهواء بلدتى، وفتنة عيون بنات المنصورة، وورود وزهور وطيور الدقهلية، ولم أجد ورائى أحداً سوى أهل المدينة وقد أعتادوا على الذى ضايقنى من القذارة والمياه الراكدة والشوارع الضيقة. وضايقنى أكثر أنهم لا يشعرون بهذه الفضيحة. ولكننى لمت نفسى وتنحيت جانباً أتفرج على الذين أعتادوا على القرف.. ولم يعد الذباب يضايقهم ولا التراب ولا الهباب.

وكان غضبى شديداً. ولم أعرف من الذى أثور عليه!

قال لى المحافظ وهو من أقاربى وزميل الدراسة: ماذا أعمل؟ لا أحد يساعدنى لا أستطيع أن أكنس الشوارع وحدى!

وتذكرنا نحن الأثنين ما كنا نقوله ونحن صغار وما كنا نتمناه للمنصورة. وما يمكن عمله الآن ففى المنصورة أكبر نسبة متعلمين فى مصر وفى أستطاعة هؤلاء جميعاً أن يشنوا حرب النظافة.. لقد أمكن ذلك فى بلاد متحضرة كثيرة. يوماً من كل أسبوع أو أسبوعاً من كل سنة!

أو يفعل ذلك محافظ واحد فيكون قدوة للآخرين!

ولم أسمع ان أحداً فعل شيئاً فى المنصورة!

□ □ □

إذا كان الفساد: حقيقة، فالثورة عليه: واجب!

وليس أحد إلا يشكو من أن هناك خللا فى مكان ما. وأن هذا يؤدى إلى تعطيل كل آمال مصر فى الأفضل لكل الناس. ولا يوجد مكان واحد بالذات قد انفرد بالفساد أو التراخى أو اللامبالاة.. أن الفساد يشبه تسرب البوتاجاز، له رائحة تعم البيت كله.. والفارق الوحيد هو أننا من السهل، فى حالة الغاز، أن نعرف مصدره وأن نسد الأنبوبة وأن نفتح النوافذ بعد ذلك فيدخل هواء جيد يطرد هواء ردئياً!

ولكن الروائح الكريهة قد تفشت بيننا. تماماً كما تمتلىء غرفة برائحة السجائر.. فالذى يدخن والذى لا يدخن كلاهما سواء فى امتلاء صدره بالهواء الفاسد. فما الذى نفعله؟

ولا يوجد اجتماع فى بيت أو فى مكتب الا تسيطر عليه هذه المعانى، وإلا يتطلع الناس إلى حل أو أمل فى حل.

ونحن صادقون فى هذا الأسى على أنفسنا..

ولابد ــ قبل كل شىء ــ أن نستشعر الكارثة.. المحنة.. الخطر الذى يهدد بناء مصر: حاضرها ومستقبلها..

لابد من الضبط والربط وبمنتهى الشدة والعنف. وأن نكون أشداء على أنفسنا وعلى غيرنا. وأن نلتزم جميعاً بما هو واجب وبما هو حزم، وعدل وخير وأمن وسلام لمصر ــ وإلا..!

● ● ●

مجهول كل من فاز بجائزة نوبل عام ١٩٨٦ ــ فنحن لا نعرف واحداً من الفائزين فى السلام أو الأدب أو العلوم ــ نحن فى مصر. ولكن لا بد ان كثيرين فى أوروبا وأمريكا يعرفون هؤلاء النابهين.

فأنا قرأت للأديب الذى فاز بجائزة السلام.. انه أديب أمريكى اسمه ايلى ويسلى. وقد قرأت له بعض أعماله الأدبية والدينية. ولم ألاحظ أنه يستحق هذا التقدير العظيم. ولكن لا بد ان اللجنة التى تابعت نشاطه وكل أعماله الخمسين قد وجدت فيها ما يستحق ذلك وأكثر..

أما الأديب النيجيرى الفائز بهذه الجائزة فلا قرأت ولا سمعت عنه. وليست غلطة الأديب، ولا غلطتى. فلم أجد له كتاباً واحداً فى اية مكتبة دخلتها. وما أكثر المكتبات التى أتردد عليها!

ويبدو أن منح الجائزة إلى شخصية مجهولة هى قاعدة مؤسسة نوبل.. لأنه من الممكن أن يكون هناك أديب ممتاز ولكن لا تتسلط عليه الأضواء. لأنه لا يستهوى الجماهير ولذلك فمؤلفاته ليست منتشرة.

وتجىء مؤسسة نوبل تعوضه عن هذه الخسارة الأدبية والمادية..

والشاعر الايطالى كوزيمودو، كان مجهولاً حتى فى بلاده.. وكذلك الأديب الأيسلندى لاكسنس صاحب ملحمة (سالكا فالكا).. والأديب اليونانى سفيريس والاسرائيلى أجنون والأنجليزى جولدمان..

.ولو كان قد فاز بهذه الجائزة العقاد وطه حسين والحكيم، لوجدنا نقاداً في بلاد أخرى يتحدثون عن مؤسسة نوبل وهوايتها الشاذة في البحث عن المجهول وأنه كلما كان الأديب خافياً على الناس، كان أغراؤه لها أشد وأعنف؟! فحتى أعمال أدبائنا المترجمة، لم تجعلهم معروفين عالمياً ولا حتى في اللغات التي ترجموا إليها — والأسباب متعددة..

ثم ان هناك حسابات سياسية ودينية وعنصرية أمام أكاديمية نوبل، لتحقيق التوازنات الدولية! وبعض الأدباء الكبار رفضوا الجائزة عندما منحت لهم.. برنارد شو وصفها بأنها مثل طوق النجاة الذى ألقى للغريق عندما بلغ الشاطىء.. والفيلسوف الوجودى سارتر رفضها لأنها قد وضعته في كفة واحدة مع أناس لا يحترمهم!

ولكنها لا تزال أعظم تكريم شخصياً وقومياً!

لن نكون شعباً متحضراً إلا إذا أنفقنا على الكتب والأسطوانات والكاستات أضعاف ما ننفقه على المياه الغازية!

فالمياه الغازية ليست من ضرورات الحياة. الماء وحده هو الضرورة. ولكنها جميعاً كماليات مثل الكعك والبسبوسة إذا قورنت بالخبز.

وربما أدت النهضة ـ أى استيعاب العلوم والفنون وتوظيفها لتطوير المجتمع ـ إلى أن يكون الكعك والمشروبات الغازية وغيرها من ضرورات الحياة كأجهزة التكييف والتليفزيون والطائرات.

ولكن لو نظرنا إلى أركان بيوتنا، صغيرة أو كبيرة، فكم من الكتب نجد. وكم عدد الذين يقرأون فى كل أسرة كتباً أشتروها. وكم عدد الذين يترددون على المكتبات العامة.. ثم كم عدد الساعات التى تشغلها الثقافة والأدب والفن فى الأذاعة والتليفزيون.

ثم كم عدد الذين إذا أرادوا أن يقدموا هدية لأحد. أعطوه كتاباً أو مكتبة.

ونحن مقبلون الآن على عيد الأضحى ومن قبله كان عيد الفطر، وبين ذلك أعيادنا السياسية، فهل ظهر أعلان واحد عن كتاب نقدمه هدية فى واحد من هذه الأعياد.. ان أحداً لم يعلن عن مصحف كريم أنيق الطباعة، أو شرح مبسط جديد لكتاب الله ـ ليكون أعظم الهدايا فى أكرم المناسبات!

ان اختفاء مثل هذا الأعلان ، هو دليل واضح على أن الكتاب ليس شيئاً هاماً فى أعماقنا . ولذلك فالطريق طويل بين المعدة والعقل أطول بكثير جداً مما هو موجود فى الجسم الانسانى ..

ويوم يكون للكتاب متعة المياه الغازية وضرورتها الآن ، نستطيع أن نقول : أننا متحضرون !

■ ■ ■

أنا من أشد الناس اعجاباً بفصاحة وبلاغة زعيم حزب الأحرار السابق جيرمى ثورب. فقد سمعته فى المعركة الأنتخابية السابقة قادراً على الأقناع.. وكل المعلومات التاريخية عند أطراف أصابعه مع النكتة وحضور البديهة..

وفجأة ظهر فى حياته شاب نصاب أتهمه بأنه كان على صلة جنسية به وأنه تآمر على قتله، أما الصلة الجنسية فالقانون الأنجليزى يسمح بذلك. ويروى أن الشذوذ إذا كان مرضاً فلا يمكن تجريم المرض كالزكام والصداع والحصبة.

ولكن الغلطة التى وقع فيها ثورب هو أنه كذب على المحكمة وقال: أنه لم يتآمر على قتل هذا الصديق العشيق!

ودخل الأنتخابات وحكم عليه الشعب بالسقوط لأنه كذب. فالكذب جريمة كبرى لمن يحملِ أمانة التعبير عن الشعب فى مجلس العموم. وكان حكم الشعب على ثورب عنيفاً. وكان الشعب متأثراً بما نشرته الصحف!

وبالأمس قضت المحكمة ببراءة ثورب، من الكذب. بعد محاكمة أستغرقت ٣١ يوماً.

وأنفض الناس من حوله، وهذا طبيعى، وبقيت زوجته إلى جواره تبيع ما لديها من مجوهرات دفاعاً عن رجل أمنت بصدقه..

هل إذا عاد ثورب إلى الناخبين مرة أخرى ينتخبونه، ويكون ذلك أعتذاراً عن ظلمهم له؟ ربما. ولكن لن يفعل. أنتهى!

□ □ □

الفيلسوف الألماني كانت هو الذى قال: أن الأطفال لم يعرفوا البكاء إلا حديثاً جداً. فأيام كان يعيش الانسان فى الكهف، أعتاد الأطفال الا يبكوا، لأنهم لو فعلوا أو تركهم أباؤهم يبكون لانقضت عليهم الحيوانات المفترسة وقضت عليهم وعلى البشرية.. ولكن الطفل أعتاد على البكاء فى عصور الأمان، أى عندما أصبح له بيت مغلق..

كلام منطقى، ولكن أحداً لم يستطع أن يجد تفسيراً واضحاً لبكاء الطفل. فالطفل يبكى لأنه لا يعرف وسيلة أخرى لطلب الطعام والشراب والدفء والأم والشكوى من الألم..

ومنذ ثلاث سنوات عكف ثلاثة من علماء أمريكا فى معهد ماساشوستس على دراسة البكاء عند الأطفال فى مختلف مراحل العمر. وقام العلماء بحصر أنواع ودرجات وشدة وحدة البكاء. وأدخلوا هذه المعلومات كلها فى العقل الألكترونى. وأستطاع العلماء أن يعرفوا أسباب البكاء جسمياً ونفسياً وأجتماعياً.

وأعلنوا بالأمس أن تجاربهم قد نجحت بدرجة ٩٥٪.

ولكن العلماء أعترفوا بأنهم لم يجدوا تفسيراً واضحاً لبكاء المرأة..

ومن الغريب أن العلماء قد عثروا على طفل واحد بين عشرين ألفاً لم يبك منذ ولادته فى العام الماضى.. ولا بد من ابكائه بالقوة ليعرفوا سبب مرضه ــ فالبكاء صحة للطفل والمرأة والرجل!

● ● ●

كانت مفاجأة غير سارة أن يردد الرئيس بريجنيف كلمة «الله» أكثر من مرة فى حديثه إلى الرئيس كارتر ــ ولا بد أن تحذف الرقابة السوفيتية كلمة «الله» التى جاءت سهواً أو مجاملة على لسان الزعيم الكبير. فالله والقياصرة ليس لهم مكان فى روسيا منذ قيام الثورة البلشفية وسوف تجد تعليقات مضحكة من بينها أن الرئيس بريجنيف قد جامل الدول العربية أو تأثر بها أو أنه أسلم، أو أنه بارك زيارة بابا الفاتيكان إلى بولندا.

وأستغفر الله ان أوردت هنا ما لا نهاية له من النكت عن وجود الله فى الأتحاد السوفيتى. ولكنهم يسخرون من الكلمة منذ المهد إلى اللحد ــ أى مهد الطفل حتى يصبح رئيساً للدولة.

وقد فزع العالم كله سنة ١٩٥٧ عندما أرتفع رائد الفضاء السوفيتى جاجارين فى سفينته ليعلن تحيته للجنة المركزية للحزب الشيوعى ويعلن عظمة روسيا. ويسخر من أنه لم يجد الله هناك ــ هناك أى على أرتفاع ٢٥٠ كيلو متراً من الأرض منتهى السذاجة والجهل والغرور. فرائد الفضاء لا يزيد عن سائق تاكسى على مستوى عال.. حتى رائد الفضاء ليس سائقاً. وإنما هو يركب سفينة يقودها ألوف الخبراء.

واستراح الناس فى روسيا وغيرها إلى ان رائد الفضاء لم يجد الله ــ كأن الله هو رائد فضاء آخر. وأنه يلف فى سفينته حول الأرض!

أو لعلها شيخوخة بريجنيف!

نحن فى عصر الأرهاب الفكرى . فكل قاتل قبل ان يشترى المسدس قد أتخذ قراراً سياسياً أو فلسفياً لارتكاب هذه الجريمة . أى أنه ليس مجرماً عادياً ، وإنما هو كاتب قد أختار المسدس قلماً . والدم حبراً . وان تكون صورته وحياته فى الصفحات الأولى فى العالم . فهو أراد أن يختصر الشهرة والمجد برصاصة واحدة . فهو مجرم له رأى . وعلى ألوف الأقلام وملايين الكنائس والمساجد أن تدعو الله ان ينقذ عباده من عباده : الأغلبية المؤمنة من الأقلية المجرمة .

ولذلك فالأرهاب واحد . وأسلحته واحدة . ولكن أهدافه السياسية والدينية متعددة . كما ان جمعيات الأرهاب كثيرة فى كل مكان فى العالم . ثم أنها مترابطة . فتجد الأرهابى الألمانى واليابانى والايطالى يعملون معاً . بل ان الواحد منهم قد يأخذ مكان الآخر . فهل الذى أراد ان يقتل الرئيس ريجان شاب نازى ؟ لا أظن ذلك . فلا هدف لهذه الجريمة . ولن تعطل سير الحياة الأمريكية . ولن يحدث فى امريكا أنقلاب عسكرى أو أنهيار دستورى . ففى أمريكا كما فى مباريات كرة القدم ، إذا وقع أعظم لاعب ، فإن الجماهير تهتز له بعض الوقت ثم يطالبون باخراجه من الملعب لأنه يعطل المباراة ويفسد على الناس متعتهم !

ولا القاتل فقير ولا هو غنى . وإنما هو قاتل فقط . لماذا ؟ لأنه ضاق بحياته هو ، فأراد أن ينهى هذه الحياة بأيدى الآخرين .. أو لأنه ضاق بكل الحكام فى العالم . ولما لم يجدهم جميعاً ، أختار أقربهم إلى مسدسه !

ولن يسكت الرصاص فى أمريكا ، لأنه ينطلق بديمقراطية كاملة !

وقيل أن اللصوص منذ أربع سنوات سرقوا السيف البرونزى الذى كان يمسكه تمثال عرابى باشا. وليست هذه أول مرة يجرده فيها المصريون من سيفه ومن شرفه ومن ألمه ومن حبه لمصر. فقد فعلوا ذلك كثيراً حتى مات عرابى باشا فى النسيان والهوان. فمنذ اللحظة الأولى التى وقف فيها الفلاح المصرى أحمد عرابى يقول للخديو أن ظلماً قد خنق الجميع، اعتبره مؤرخو الخديو رجلاً جاهلاً مجنوناً. وجاء الانجليز وحملوه من شعبه إلى جزيرة سيلان (سرى لاناكا ـ الآن). وهناك نزل عرابى بطلا عملاقاً. بل أن أهل الجزيرة اعتبروه أحد أبناء السماء. وعندما سافرت إلى جزيرة سيلان عثرت على الصحف التى تحدثت عن عرابى ورفاقه. وكيف استقبلهم الناس هناك بالهتافات وكيف أن الانجليز كانوا ينظرون إليه على أنه فلاح جاهل متهور. با أن أحد الصحفيين قد ذهب للقاء عرابى فى عرض البحر وراح يسأله: هل صحيح أن الذى يتكلم الانجليزية يعتبر كافراً؟ وكان عرابى يضحك ويقول: أننى أتعلمها منذ تركت مصر!

وأسئلة أخرى أكثر سخافة. وكلها تدل على النظرة الغريبة إلى عرابى وإلى الثوار المصريين. هذه النظرة ظلت اطاراً خانقاً لتاريخ عرابى وشجاعته. وقد ظلم المؤرخون أحمد عرابى عندما قاسوا مواقف الغضب على الظلم فى عصره، بمقاييس عصرنا نحن. وعندما حاولوا أن يطبقوا عليه مفهومنا الحديث للانقلاب والثورة. هل كان صاحب انقلاب؟ أو هل كانوا ثائراً؟ أو كان مجرد غاضب ساخط. أو أنه كان مندفعاً ولم يدرك بوضوح معنى هذا الذى فعله؟ أو أنه كان كالذى صفع إنساناً بالقلم فمات.

ولم يكن الموت دليلاً على عنف الصفعة وإنما كان دليلاً على ضعف هذا الذى صفعه ؟ !

وفى حياة عرابى باشا يختلط الاسى بالفكاهة. ففى جزيرة سيلان يذكرون له أنه هو أول من شجع على حفظ القرآن. وأنه هو الذى أنشأ «الكلية الزاهرة».. وهو الذى أدخل الكعك والبسكوت والغريبة والكنافة والقطايف إلى هذه البلاد. وأنه كان حريصاً على إقامة الحفلات لظهور انجاله !

ومنذ سنوات نشرت الصحف فى مصر أن تمثال عرابى باشا قد نفخه الهواء فسقط الرجل على الأرض وأن محافظ الشرقية يستنجد بالمجلس الأعلى للفنون للنهوض بالرجل. ولك أن تضحك أو تأسف على هذا الذى أصاب الرجل وتمثاله. ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. فقد طلب محافظ الشرقية «تقويم» تمثال عرابى باشا ــأى ارسال لجنة من الفنيين لمعرفة «القيمة» الحقيقية للتمثال قبل أن ينصبه فى ميدان عام. ولكن سكرتيرة لجنة الفنون التشكيلية فى المجلس الأعلى للفنون قد فهمت أن «تقويم» التمثال معناه أن التمثال قد وقع، وأنه فى حاجة إلى من يوقفه فى مكانه ــوهى معذورة فى هذا الفهم. فنحن لم نعرف حتى الآن أين الصح والخطأ فى كلمتى: التقويم والتقييم !

ولكنها النكتة والنكبة والسخرية التى أحاطت بحياة وممات الزعيم أحمد عرابى.. وهى صورة من صور الظلم الذى يتلقاه المخلصون من أبناء كل وطن. لا لسبب إلا لأن الشعوب كثيراً ما ضاقت برجالها فحولتهم إلى أعداء لها.. وخونة لارضهم وعرضهم. وليس أحمد عرابى آخر من يظلمه مواطنوه ويجردونه من سيفه وشرفه.

والشاعر القديم يقول :

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند .

والمثل الشعبى يقول : الدخان القريب يعمى .. والطلق القريب يدوش !

كل ذلك أصاب عرابى باشا ، ذهاباً وإياباً من المنفى وإلى الوطن .. وهذا ما يحزن الأحياء من الوطنيين على أنفسهم ، عندما يتخيلون أنهم سوف يلقون نفس المصير ــ من يدرى !

■ ■ ■

المصريون العاملون فى الدول العربية بأجازات بدون مرتب، قد عاودهم القلق على ما فاتهم هناك وعلى مستقبلهم فى مصر. فالدولة تريدهم أن يعودوا أو يستقيلوا. وفى نفس الوقت تريد لهم الوجود فى البلاد العربية، الحضور المصرى فى الدول التى أنقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر.. وفى نفس الوقت تشكو مصر من كثرة العمالة فى مصر، ومن نقص وارداتها من العملات الصعبة ــ أى أن مصر ليست فى حاجة إلى عودة هؤلاء الذين يعملون فى الخارج. وإنما فى حاجة إلى فلوسهم بشرط أن يبقوا هناك. فبالله كيف لا يكون هناك ثم يبعث بالعملات الصعبة!

وهؤلاء المصريون الذين ذهبوا إلى العمل، كان على مسئولياتهم وحدهم. ولم يجدوا العمل المناسب فى المطار على طبق من ذهب. وإنما تعبوا كثيراً حتى وجدوا العمل وحتى كسبوا الثقة، وسط استفزازات لا حدود لها.. وأهانات شخصية وأهانات وطنية. وتحملوا وأصبحوا عند عظيم الثقة بهم. وعلى الرغم من الظروف الأقتصادية الصعبة التى تمر بها دول الخليج، فإن بعض المصريين يلقون الأحترام وحرص أصحاب الأعمال على بقائهم ــ بينما بلادهم تطالبهم بالعودة. مع أن وجودهم هناك يوفر على مصر أكلهم وشربهم ومسكنهم وعلاجهم وتعليمهم..

وليس للوزارات المصرية سياسة موحدة. فوزارة الصحة أطلقت العمل فى الخارج بلا حدود..

ووزارة الأقتصاد أشترطت ألا يزيد العمل فى الخارج على ١٤ سنة. ووزارة المالية التى تشكو لطوب الأرض من نقص تحويلات المصريين فى الخارج تشترط عشر سنوات..

وبعض المحافظات تفعل ما بدا لها.. وما بدالها عجب كأنها تستمتع بالحكم الذاتى ولا علاقة لها بالحكومة المركزية!

وليس من كل هؤلاء المصريين العاملين فى الخليج العربى صاحب تخصص نادر، تموت مصر من غيره، وتتأخر كل الصناعات والخطط إذا لم يعد فوراً..

وإذا كانت هذه سياسة جديدة للدولة مع أصحاب التخصصات أو المواهب الفذة فلنطالب أولاً بعودة الدكتورين مجدى يعقوب وفاروق الباز!

□ □ □

لم أتناقش مع أحد من المشتغلين بالفنادق فى مصر لأعرف رأيه فى رفع أسعار الفنادق. ولكنى أعلم أن الفنادق فى مصر أرخص كثيراً جداً من نظيراتها فى أوروبا. وكذلك المطاعم وبقية الخدمات. ولكن لا أظن أن الخدمات التى تقدمها مصر ترقى إلى مستوى ما تقدمه الدول السياحية المعروفة: أسبانيا وإيطاليا وأنجلترا وفرنسا واليونان وقبرص!

ولا مانع من أن تكون المعاملة بالمثل فيدفع السائح بالعملة الأجنبية ــ بالدولار والأسترلينى. ولكن بشرط أن يلقى نفس المعاملة إبتداء من دخوله مكاتب السياحة المصرية والطائرة والمطار والشوارع والمتاحف والتاكسيات والأسواق حتى يعود إلى الميناء الدولى الذى جاء منه..

وفى نفس الوقت يجب ألا نكذب عليه وألا نخدعه وألا نربك له مواعيده ذهاباً وأقامة وأياباً وألا نلطعه على الرصيف أو ينام أمام الفندق حتى تخلو الغرفة التى أكدنا له أنها محجوزة بأسمه.. وألا نحاسبه بسعرين وثلاثة أسعار، وعلى المستوى الرسمى أيضاً. وألا نكذب عليه هناك، وقبل أن يجىء..

ومن ناحية أخرى يجب ألا ننسى أن السياحة فى مصر قد تعرضت لهزات عنيفة جداً... وفى كل مرة نحتاج إلى مجهود عظيم لأقناع الناس بالعودة إلى مصر. بعض الهزات تتعلق بالأمن العام والأمن الدولى..

ومن المؤكد أن الناس سوف يعودون إلى مصر ــ ولكننا نستعجل

عودتهم، ونريدهم كثيرين. ولذلك يجب أن نغريهم بالعودة فلا نرفع الأسعار ولا نعقد الطريق أمامهم.

وفى نفس الوقت يجب ألا ننسى أن المصريين أنفسهم يفضلون أوروبا على مصر ــ اليونان وقبرص التى تتسابق فى توفير الخدمات وخفض الأسعار. وأكثر الذين كانوا يصطافون فى الأسكندرية يفضلون عليها رودس وقبرص. بل أن اليونان قد باعت مئات الشقق للمصريين وبأسعار زهيدة جداً..

إذن، لم يكن الوقت مناسباً لرفع الأسعار، إلا إذا كانت هناك حكمة أخرى ــ وسوف نرى!

● ● ●

لا أطلب إليك أن تنظر إلى وجوه الحكام فى هذه الدنيا ؛ ان الهم والغم واضح على وجوههم. المسئولية الضخمة والتحديات الهائلة والخطر من كل مكان. ثم أن أحداً لا يمتن لهم أحياء وأمواتاً. وهم محرومون من كلمة الحق، وهم أحياء. فكل الذين حولهم خائفون أو طامعون. كلمة الحق تقال عادة بعد موتهم بمائة عام!

وإنما أنظر إلى بقية الناس. إلى نفسك. ان كنت كبيراً فأنت مهموم، وان كنت شاباً فأنت قلق. وان كنت طفلاً، فأنت لا تدرى بوضوح ما ينتظرك. وينابيع القلق فى حياتنا كثيرة جداً. فالحياة فى المدينة تحطم الأعصاب وتفسد الصحة والعمل، ليس بها نظام. ولا أحد يعرف ما هى القاعدة التى تجعلك ناجحاً. وهل لهم علاقة بما تعلمت فى المدرسة، أو ان النجاح علاقات عامة. أو هل مكتوب على المخلص أن يخسر، وعلى اللص أن ينجح. وعلى الفاسد أن يكون غنياً، وعلى المستقيم أن يكون فقيراً. فما هو الصح وما هو الخطأ. وما مدى صحة العبارة الشهيرة: لا يصح إلا الصحيح ؟!

وفى مواجهة القلق، ومحاولة التخلص منه عرف الناس المهدئات والمنومات والمسكنات والمخدرات. وما من أحد لا يتعاطى شيئاً من ذلك فالكل يبحث عن الهدوء المزيف والراحة المزورة، من أى مصدر. ومعنى ذلك أنه لا مفر من التعب ولا مفر من الخلاص منه بالمواد الكيميائية أو النباتية.

فإذا قلنا أننا نعيش فى عصر المخدرات ، فمن الأصح أن نقول أننا نعيش فى عصر المتاعب النفسية الكبرى ، لأسباب أقتصادية وسياسية واجتماعية . فكما ان الهواء الفاسد فى كل مكان ، وكذلك الماء والطعام ، فالقلق أيضاً .. ولذلك فالناس يبذلون جهداً كبيراً لكى يعملوا قليلاً .. تماماً كأن جاذبية الأرض قد قويت فجأة ، ولذلك فالمجهود الذى نبذله من أجل حياتنا العادية قد أصبح هائلاً .. ولذلك كانت قدرتنا على الأنتاج أقل ، وقدرتنا على النوم الطبيعى أضعف .. ولذلك تحتم ان يقترض الناس نشاطهم وراحتهم أيضاً ــ فهم يستخدمون المنبهات باسراف والمنومات بكثرة .. وبين التنبيه الشديد والتنويم العميق ، تتأرجح وتهتز وتتساقط ــ فهذه هى مصيبتنا !

فكرت طويلاً جداً قبل أن أجيب عن سؤال أحدى الاذاعات العربية : وما هى السعادة! وفكرت كأننى أمام شىء لا أعرفه. وفعلاً لا أعرفه. ولكن أعرف بعض اللحظات التى يمكن أن تكون سعيدة. والسعادة نسبية : تختلف من انسان لآخر.. وتختلف من مرحلة فى عمرك إلى مرحلة أخرى. فالذى كان يسعدك طفلاً غير الذى يسعدك وأنت أب لعدد من الأطفال.

مرة واحدة لا أعرف كيف حدثت ولا كيف يمكن تكرارها. كان ذلك فى مانيلا بالفلبين. قررت أن أنام مبكراً. هل كنت مرهقاً لهذه الدرجة؟ لا أعرف. هل كان الطعام مهدئاً لدرجة أننى لم أستطع مقاومة النوم؟ نمت وصحوت فوجدت الشمس قد ملأت الغرفة. فأدهشنى ذلك. فأنا لم أر شروق الشمس من عشرات السنين فأنا أصحو قبل الفجر لكى أقرأ وأكتب فى غرفة مغلقة الباب والشباك. وفى ذلك اليوم رحت أتحسس نفسى. فقد ظننت أننى مت.. ونظرت إلى الساعة فوجدت أننى نمت من الغروب إلى الشروق وهو ما لم يحدث قط، حتى عندما كنت طفلاً.

وانشغلت بما حدث لعلى أكرره كل يوم فأحظى بهذه الراحة والصحة والخفة ــ السعادة الحقيقية!

ولم أفلح رغم أننى رحت أحصى كل ما فعلت وأكلت وشربت وأضفت إلى ذلك الحمام الساخن والعسل واللبن ــ لقد حدث ذلك مرة

واحدة. تماماً كأنها «طاقة القدر» أنفتحت لحظة فانبهرت لدرجة أننى أستطيع أن أطلب من الله شيئاً واحداً ـ أو هكذا تخيلت!

فالسعادة هى تلك الحالة التى لا توصف من الراحة الجسمية والنفسية والعقلية.. لحظة أو دقيقة أو ساعة.. وقد يحدث ذلك بعد ان تفرغ من مشروع أو من أختراع. أو من أبتلاع زجاجة مع سيجارة مع فنجان قهوة مع قطعة موسيقية..

لم يكذب كثيراً ذلك الذى كتب على قبره: ولد يوم ٥ يونيو ومات يوم ٧ يونيو ـ أى أنه عاش يومين فقط ـ هذه سعادته!

■ ■ ■

كأنه لا كان طبيباً عظيماً ولا عالماً جليلاً ولا باحثاً عالمياً، مات دون أن نقرأ أو نسمع عنه كلمة وداع من أحد من زملائه أو تلامذته. مات فى هدوء، كما عاش فى هدوء: بول غليونجى..

كانت تربطنى به علاقة تليفونية سنوات على وعد أن أزوره، وأن يزورنى. ولكن لم يسعدنى الحظ، وان كان قد أسعدنى وأمتعنى كثيراً جداً بقراءة الروائع التاريخية التى كتبها. وقبل وفاته بأيام بعث إلى بجميع مؤلفاته. فقد طلبت أنا من كل أبناء المنصورة من العلماء والشعراء والأدباء أن يشاركوا فى ملء مكتبات المنصورة. وكان أسرعهم بول غليونجى..

آخر ما قرأت لبول غليونجى كتابه عن الطبيب العربى «ابن النفيس» وكان أول من أهتدى إلى هذا الطبيب العربى العبقرى طبيباً مصرياً مجهولاً هو الدكتور التطاوى. فعندما أكتشفه الدكتور التطاوى لم يصدقه أساتذته الذين لايعرفون اللغة العربية. وكان دهشتهم عظيمة عندما أكد لهم أحد المستشرقين أن كل الذى قاله التطاوى صحيح. وأكمل د. غليونجى أكتشاف ابن النفيس ورأيه فى الدم والقلب والدورة الدموية.

قال د. جمال بجيرى أن بول غليونجى كان من أعظم العلماء وأكثرهم أدباً ولطفاً.

قال د. حسين بدر الدين ان بول غليونجى جمع العلم والأدب والوسامة والتواضع العظيم.

ومنذ أيام تلقيت من الصديق د. الأب قنوانى رئيس معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين كتاباً باللغة الأنجليزية أشترك فى ترجمته وتحليله عن «المخطوطات الطبية لابن رشد فى مكتبة الاسكوريال بمدريد» ــ وهو أحدث ما كتبه بول غليونجى..

أما دراساته عن الطب الفرعونى فتحفة تاريخية تدل على عمق النظرة وبراعة التحليل ومثابرة العالم، ورهبانية الفلاسفة.. وكان د. بول غليونجى أول من نبهنا إلى عبقرية الجراح الفرعونى وأنه سبق الطب الحديث فى كل أنواع العمليات.

أن الحفاوة بمثل هذا الرجل العظيم بعد وفاته: أحياء لكثير من القيم العلمية والأخلاقية: الصدق والدقة والصبر والتواضع وانكار الذات!

□ □ □

كنت أتناول طعام العشاء فى أحد الفنادق العائمة، فوجدت عدداً من السفرجية ورؤساء كبار يوجهون السفرجية ولا أعرف درجتهم الأدارية، أو أسماءهم الفنية. فكنت إذا طلبت من هؤلاء الكبار كوباً فإنهم يشيرون إلى السفرجية بان يفعلوا ذلك.. ولم أفهم بالضبط ما هى مهمة أو أهمية أو ضرورة هذا النوع من الرؤساء الذين أرتدوا الملابس النظيفة المشدودة مثل قوامهم وحركاتهم. وحاولت أن أتابع ما الذى يفعلونه بالضبط. لم أجد، وإنما هم يحركون عيونهم يميناً وشمالاً. بما معناه أنهم يراقبون ويلاحظون.

حتى ذهبت إلى ندوة كلية السياحة والفنادق بالقاهرة. وفى مكتب العميد د. نورالدين، الياس، وهو رجل مهذب خجول. قلت له: كنت أتوقع أن أجد مكتبك أنيقاً تتوزع فيه الورود والزهور.. وأن تكون المناضد مغطاة بالمفارش وأن تكون المشروبات فى أكواب أنيقة لها أطباق.. وأهم من كل ذلك أن يقوم الطلبة بعرض نموذجى لما سوف يفعلونه غداً فى المطاعم والفنادق.. ولم يجد الرجل مايقوله.. ولكن تطوع أحد الأساتذة وقال: ليست هذه وظيفتهم. فهم أداريون!

أى أنهم مثل هؤلاء الذين يديرون ولا يقدمون طعاماً ولا شراباً!

ولم أفهم. ولم أتصور لحظة واحدة أن كلية الفنادق لا تترك لطلبتها تنظيم كل ما يتعلق بنظافة وأناقة كل القاعات والممرات والسلالم والحديقة، وان يشارك الأساتذة ويكونوا قدوة للجميع!

إذن بعض هؤلاء الذين لا ضرورة لهم فى المطاعم والفنادق، قد تخرجوا من هذه الكلية. ولا أظن أننا فى حاجة إلى أصحاب النظرات واللغات الذين لا عمل لهم. مع أن مئات الطلبة من جميع الكليات إذا سافروا إلى أوروبا مسحوا الأرض والبلاط وحملوا الحقائب للزبائن!

ان كافيتيريا هيلتون وهى غرفة واحدة قد غيرت الحياة الأجتماعية فى مصر من ثلاثين عاماً: فقد ربطت الليل بالنهار، وحشدت الجميلات الجامعيات يقدمن الطعام والشراب، مع أحترام من الجميع. لقد قدمت النموذج الأنيق للعمل اليدوى.

ولم تتقدم الدنيا كثيراً بسبب أصحاب الياقات البيضاء وإنما بسبب أصحاب القمصان الزرقاء والسوداء والأفرولات والبلوجينز— أى الذين يحترمون العمل اليدوى..!

● ● ●

أمضيت أربعة أيام فى الريف: فى الاسماعيلية اخر المدن النظيفة فى مصر.. وفى المنصورة أجمل المدن وأكثرها تدفقاً بالشعر والفن والعلم وأكثرها مدارس وأعلاها نسبة فى عدد المتعلمين..

أما الصفاء والهدوء فيكفى أن تنقل عينيك بين النيل والناس، بين القناة والحدائق والعصافير.. بين الورود ووجوه الطيبين من أبناء وطنك.. أنهم مختلفون عنا نحن الأحياء فى القاهرة الكبرى. ان ايقاع الحياة عندهم أبطأ. نحن الذين نقول أنه أبطأ.. لأن الحياة فى القاهرة مجنونة عصبية متشنجة بسبب الزحام والضغط والقهوة والمواصلات والتليفونات والصحف. وأنت فى القاهرة تفتح عينيك على الصحف فتبدأ الصدمة الكهربية وبعدها المنبهات وبعدها تحترق أعصابك حتى تأوى إلى فراشك، فتجد أن النوم صعب فتتجه إلى المنومات.

وعندما يقدمون لك الزبادى والشاى واللبن.. وتتردد فى أن تذوق اللبن، ولكن أحداً لا يفعل مثلك.. وتندهش كيف ان هذه القضية العالمية التى تتعالى أصداؤها على أقلامنا، لا تخيف أحداً. ولكنك تسكت عندما لا تجد لكل ذلك، وقضايا أخرى كثيرة، أثراً فى نفوس الناس..

وعندما تتوغل فى الريف تسخر من الصحف القاهرية التى أنزعجت كثيراً على الأطفال الذين يتهددهم اللبن المشع عندما تجد أمهاتهم يغسلن الحلل والشوك والسكاكين فى الترع الملوثة تماماً.

سألت شاباً متوسط التعليم : هل تمتنع عن شرب اللبن لو صح ما تنشره الصحف من أنه مصاب بالتلوث الأشعاعى ؟

فأجاب : الأعمار بيد الله ..

قلت : ولكن من الواجب أن تحتاط حتى لا تعيش مريضاً .

فأجاب : والمرض أيضاً بيد الله .

قلت : وما تنشره الصحف !

قال : ها ها .. حضرتك عارف ..

وأنا أعرف . ولكنه لم يشأ ان يحدد بالضبط ما الذى يقصده . وأكتفى بالأشارة إلى أنها مبالغات صحفية ..

إذن ــ عندهم فى الريف مناعة ضد التلوث الصحفى . فنحن ننشر بحرارة وصدق ، وهم بنفس الصدق والحرارة لا يصدقوننا ــ وهكذا تساهم اللامبالاة والملل فى التخفيف عن خطورة سم نووى ــ ان كان قد تسلل إلينا !

كل بلد له الشباب الذى يستحقه!

ومن مشاكل أى بلد، تشع الحلول. وهذه الحلول تظهر فى عيون وأحلام الشباب. ومن السخط على الماضى الذى كان والقلق على الحاضر الذى يكون، تتولد مخاوف الغد الذى سوف يكون. وإذا كان الشباب أميناً على المستقبل، فكيف يكون أميناً على الغد، وهو لا يملك اليوم..

وهو لا يملك اليوم لأنه يقف على أبواب الجامعات والمعاهد بمئات الألوف. وينتظر أن تعينه الدولة فى مكان ما. ويذهب إلى المكان فلا يجد مقعداً. فإذا وجد مقعداً لم يجد سكناً، وإذا وجده لم يجد الخلو. وإذا وجد الخلو لم يجد الشريكة. وإذا وجدها لم يجد خادمة للولد!

ثم ان الأرض تحتنا لم تتسع من أيام الخديو إسماعيل. الأرض المزروعة محدودة وإذا زادت جرفناها، أو أقمنا عليها بيوتاً، ولا يوجد شاب لا يتمنى ن يكون له أرض وأن يقيم عليها حقلاً وبيتاً ومصنعاً. ولكن لا يلقى لمساعدة الكافية. شىء عجيب أن الدولة تخاف أن تعطى أرضاً صغيرة شاب، وان تعطى أرضاً كبيرة لمستثمر أجنبى.. فالأرض سوف تبقى فى مصر ولمصر..

ما هو المعنى؟ المعنى ان الشاب يجد الذين هم أكبر ليسوا أحسن حالاً منه.. أنه لا يقرر لأنه لا يملك، والذين يملكون لا يقررون أيضاً.

ومنذ أسابيع نشرنا أن عدد عمال مصر ١٢ مليوناً (أقرأ هذا الرقم مرة

أخرى). ثم تساءل أين يعملون؟ وما نتيجة هذا العمل؟ ان دولاً أخرى في حجم نصف سكان القاهرة على أستعداد لأن تطعمنا وتسقينا بما يفيض عن حاجتها؟ كيف؟ الجواب: ان المليون عامل عندهم، ينتجون أضعاف أضعاف ماتنتجه الأثنا عشر مليوناً الجالسين القرفصاء في مؤسساتنا!

ولا علاج يجيء بعد يوم ولا عام. ولكن لابد من علاج عنيف. ولن يشكو من القسوة أحد، ما دام التطبيق العنيف للخطة لا يستثنى أحداً.. تسألنى: متى؟ أقول لك: الآن. تسألنى: كيف؟ فأقول لك: كما فعلت الهند والصين وكل الدول التى أنهارت فى أعقاب الحروب.. وكل الدول التى لم تخدع نفسها وشعبها وأيقنت انها فقيرة وأنها يجب ان تمدد رجليها على قدر لحافها.

■ ■ ■

مثل شعبى يقول : من عاش بالحكمة عاش بالمرض ــ والمعنى : ان الذى يراعى الطعام والشراب ويحسبها حساباً علمياً ، يتعب جداً فى حياته . ومصدر هذا التعب أن الناس الآخرين لا يراعون ذلك .. إذا باعوا وإذا طبخوا أو إذا قدموا الطعام . والنتيجة أن يكون فى خلاف وشجار مع كل هؤلاء الناس . ولأنهم أغلبية وهو وحده ، فلن يستطيع ان يفرض حالته النفسية أو العقلية على كل الناس .. ولا بد أننا عرفنا ولو واحداً فى حياتنا : يغسل الكوب والملعقة ويضع الخضروات والفواكه فى المياه المعقمة .. ويرفض أن يأكل شيئاً لم يتم تطهيره تماماً . وقد لاحظنا ان هذا النوع من الناس « قرفان » عموماً ــ من مصافحة الأيدى والجلوس مع الناس والأقتراب منهم .

وربما عاش هذا الرجل مريضاً ، بينما عاش الآخرون فى صحة أفضل !

وكنا ونحن طلبة فى الجامعة قد عرفنا واحداً نظيفاً جداً « موسوساً » جداً ــ أنه والد الأخوين محمود وعلى رضا ــ وكان وقتها أميناً لمكتبة الجامعة !

ثم أصبحنا جميعاً كذلك . فكل يوم يطلع علينا الأطباء بأن كل شىء نأكله أو نشربه أو نشمه أو نلمسه : ضار . فالهواء ملوث والماء وكل الفواكه والخضروات واللحوم والألبان . وكل شىء فى دنيانا يؤدى إلى السرطان : الشاى والقهوة والسجائر .. واليوم الألبان ومشتقاتها ومركباتها !

ومع ذلك فإن أحداً لم يمتنع عن الطعام والاسراف فى كل شىء. وليس سبب ذلك ان الناس يريدون ان يموتوا. ولكن السبب أنه من الصعب أن نعرف ما هو الضار والذى ليس ضاراً. ولا بد أن نعيش. ولكى نعيش ونبلع اللقمة لا بد أن ننسى، أو نتناسى. أو نتوكل على الله.

فقد أصبح من المستحيل أن نتقى هذه الأضرار التى أنتشرت فى كل شىء. ولا بد أن يكون الجسم قد أكتسب نوعاً من المناعة، ولا بد ان تكون الأعصاب تبلدت ولا بد أن يكون العقل توقف أمام الرغبة فى الحياة.. ولأنه من المستحيل أن نعيش «بالحكمة» التى يتحدث عنها المثل الشعبى..

والنتيجة: خليها على الله ــ وليست هذه حكمة شعبية فقط ولا نصيحة دينية، وإنما دعوة علمية أيضاً!

□ □ □

قرأت قصة لأديبة امريكية لامعة اسمها «مارتا جرين» لا أعرف كيف ألخصها. فليس فيها أحداث ولا أعرف كيف أبدؤها. فليست لها بداية. ولكنها تبدأ هكذا ..... وبالقرب من الجسر وقف وأسند ذراعه إلى الحديد البارد.. «أى أنه كان يمشى، ثم توقف. أو أنه نزل من سيارة.. أو سقط من طائرة.. أو هو خرج من النهر.. أو أنه كان مخموراً. فلما وقع فى الماء وظل كذلك بعض الوقت أفاق.. أو أنه عندما أفاق سقط فى الشارع، فجاء من يركله برجله إلى جوار السور الحديدى.. أو ان هذه «الركلة» قد جعلته يفيق، فنهض ووقف واستند بذراعه..

وتمضى القصة هكذا:.. وأسند ظهره للجسر الحديدى، ونظر إلى الكتل المظلمة الجبارة التى هى ناطحات سحاب نيويورك وأخذ يدور حول نفسه..».

وتستغرق القصة عشرين صفحة دون كلمة واحدة من البطل الذى لانعرف أسمه.. وإنما هو واحد من أبناء نيويورك لو عاش أو مات فلا يهم أحداً.. ثم تجىء هذه العبارة فى نهاية الصفحات التى خصصت للقصة. ولا أقول فى نهاية القصة، فهى بلا نهاية:.. «ألم أقل ألف مرة أننى على حق.. ولكن أحداً لا يسمعنى.. ولكن أحداً فى داخلى لايسمعنى.. فأنا لا أسمع نصيحة أحد.. وخصوصاً نصيحتى!».

فهو إذن إنسان يعانى من الوحدة الشديدة.. من العزلة القاتلة.. فالمدينة مليئة بالناس، ولكن أحداً لايدرى به.. والمدينة يراها بعينيه

ولكنها بعيدة .. ولذلك فهو يتحدث إلى نفسه .. حتى نفسه لا تسمعه .. فهو يطلق أصواتاً فقط ، ويتصادف أنه قريب من مصدر الصوت ، أو هو مصدر الصوت، ولذلك يسمع ما لا يقتنع به ــ أنها أعراض الجنون عند سكان العواصم الكبرى ! .

● ● ●

لم تشعر القاهرة بمؤتمر دولى إنعقد وانفض بحثاً عن الجمال والقبح والحياة والموت والحضارة والتخلف فى مدينة القاهرة. جاء علماء من أركان الأرض يعرضون تجاربهم فى بلادهم: كيف أصبحت البيئة قاتلة لهم. وكيف أن القتل هو أهون ما لقيه الناس. ولكن الناس يعانون من الأمراض التى أتت بها السجائر والمخلفات الكيميائية والمبيدات الحشرية فى الحقول ـ (ولمعلوماتك: فكل من نستخدمهن مواد كيميائية لرش الذباب وقتل الصراصير والفئران سامة وضارة بالصحة. والذين لا يحلو لهم النوم إلا فى ضباب المبيدات لا يعرفون أن هذه المبيدات تخدرهم فهم ينامون وكأنما أغمى عليهم).

ذهب العلماء وتركوا أبحاثهم التى لن يقرأها أحد. وبقيت لنا القاهرة كما كانت وهى أسوأ لأن الذين تداولوا هذه الأبحاث قد مزقوها وألقوا بها فى الشارع.. أى ألقوا بالورق والتجارب وعلوم الشعوب الأكثر حضارة.

وقد تمنيت فى هذا المكان وفى أماكن أخرى أن يظهر فى مصر حزب سياسى أو إجتماعى يدعو إلى «الحياة الخضراء».. أى إلى زراعة الأشجار فى كل مكان.. وإلى صناعة الحياة: الأشجار والطيور والحيوانات وإقامة الحدائق وفتح الميادين وتجميل الشواطىء والبلكونات، ومداخل البيوت.. وإلى تحريم البناء على الأرض المزروعة، وتحريم تجريف الأرض.. والتوسع الأفقى فى الصحراء. فلا تقام ناطحات سحاب فى الصحراء كما هو الحال فى مدينة نصر وغيرها.. ومنع البناء فى مدينة القاهرة.

وفى البيت وفى المدرسة يجب أن نعلم ونتعلم أن الحياة بناء وأن البناء عمارة ، وأن العمارة سلوك إيجابى وأن الحياة لها طعم . والطعم ذوق وتذوق .. وسوف يكون من نتيجة ذلك أن نرصف شارعا وتزرع شجرة ونعجب بفراشة ويجيء السلام لأنه حياة لنا ولغيرنا ..

● ● ●

هناك حل آخر غير أنتظار الأسماك التى تجىء أو لا تجىء من أسوان، لكى تحل أزمة اللحوم. فنحن أهتدينا إلى تربية الدواجن والأغنام والعجول، لكى تخفف من وارداتنا من اللحوم من السودان ومن غيرها من الدول التى تربى الماشية أو التى تبيع لنا اللحوم والسردين والتونة فى علب.

أنها فكرة رآها المهندس سيد مرعى فى تايلاند. يقول ان حواراً دار بينه وبين ملك هذه البلاد. فتدرج الحديث بينهما إلى الأسلوب الذى حلت به هذه المملكة مشكلة أرتفاع أسعار هذه الأسماك أو تعذر الحصول على هذا اللحم الطرى الجميل.

والغريب أن أهل تايلاند يرون أن لديهم مشكلة من هذا النوع. على الرغم من أن بلادهم لها شواطىء على المحيط الهندى. ولكن أن هناك أناساً يملكون حظائر لتربية الدواجن أو مزارع لتربية الأسماك أن هناك أناساً آخرون ينتجون ما يحتاجون إليه من سمك.

ففى تايلاند يوجد حوض لتربية الأسماك أمام كل بيت للأستهلاك الخاص وكل مواطن يشترى ما يحتاج إليه من بذور السمك ــ أو الأسماك الصغيرة اللازمة للتربية ولبيعها أو أكلها على كيفه.

والفكرة بسيطة و واضحة وممكنة ففى أستطاعة أى أحد أن يبنى لنفسه وأمام بيته فى الريف المصرى حوضاً للسمك أو يشترك كثيرون فى بناء أحواض جماعية فى كل قرية وكل مدينة.

والغريب جداً أن هذه الأسماك «نيلية» أى من التى نأكلها فى مصر وفى أعالى النيل. وهى أنسب وألذ أنواع الأسماك التى يمكن زراعتها فى أى مكان من العالم.

ويقال أن القوات اليابانية فى الحرب العالمية الثانية كانت تأكل هذه الأسماك محفوظة. لأن لها مزايا خاصة: كثيرة اللحم والبطارخ وتعيش أطول ثم أنها أكثر الأسماك توالداً وأرخصها فى نفس الوقت.

وأمام المصريين الآن فكرة واردة من شرقى آسيا للاستفادة من الأسماك المصرية على أحسن وأجمل وأوسع وألذ نطاق، السمك من عندنا والفكرة من عندهم.

ويمكن وبسهولة جداً أن نزرع أسماكنا ونصدرها لهم أو غيرهم. لأن هذه الفكرة إذا أنتشرت فى الريف المصرى فسوف ننتج ما يكفى أحتياجنا وزيادة ـ أن هذه الزيادة سوف نبعث بها إلى تايلاند بأسعار أرخص ويكون أنخفاض هذه الأسعار للأسماك النيلية نوعاً من الأمتنان للذين علمونا كيف نربى أسماكنا!

فى التاريخ العالمى نجد أن كاتباً أو مفكراً أستطاع أن يصوغ عصره. أى يعبر عن مشاعر الناس ويتقدمهم، ويمشون وراءه نحو فهم جديد، أو حل لمشكلة طويلة.. أو أنطلاقاً إلى مرحلة أو آفاق جديدة فى الفكر والحياة.

والمفكر لا يفعل ذلك بشخصه فقط، ولكن بأعماله ـ أى بمؤلفاته الأدبية أو الفلسفية.

وكنا نندهش كيف ان كتاباً استطاع أن يهز الناس ويوقظهم ويغير سلوكهم؟ وكيف لا نجد شيئاً من ذلك فى تاريخنا الحديث أو القديم؟

هل لم يظهر فى حياتنا واحد ينظم أفكارنا المضطربة أو المبعثرة فى خيط واحد.. أو كتاب واحد.. ويسعدنا ذلك. ونجد فى هذا الكتاب منقذاً ومخلصاً؟ ألم يظهر الكاتب؟ أو هل ظهر ولكننا لم نشعر؟ وهل نحن لم نشعر لأن الأغلبية جاهلة والأقلية غير مثقفة وليس لديها هذا الأستعداد.. أو هذه الشجاعة على المغامرة؟ فكل فكرة جديدة هى مغامرة تتحدى «جواً» قديماً وتغتصب فيه الشمس وتفرض النور على العيون والعقول..

هل الكتاب ليس هاماً فى حياتنا أو هو هام ولكننا لسنا قادرين على أن نقفز من الكتاب إلى الواقع، إلى الحياة فنغيرها ونبدلها؟ هل شرط النجاح أن يكون لدى القراء هذا الأستعداد لرد الفعل الإيجابى وبذلك

يكون الكتاب ألف كتاب، ويكون المؤلف مليون قارىء، ويكون رد الفعل برنامجاً للعمل الوطنى أو الحضارى؟

ولا يتسع المكان لسرد الكتب التى هى علامات فى طريق الحضارة الإنسانية. ولا حتى الكتب التى أثرت فى الشباب ففتحت قلوبهم ورءوسهم. بل اللوحات الفنية أو المقطوعات الموسيقية أو القصائد الغنائية أو الثورية التى أزالت السحب وبددت الضباب وغيرت المسار..

أنا لا أعرف فى تاريخنا شيئاً من ذلك. فلا رأيت كاتباً يهز، ولا كتاباً يزلزل، ولا عشرين كاتباً يفعلون واحداً على ألف مما فعلته كتب كثيرة معروفة فى التاريخ.. ربما ظهرت بعض الكتب، وكان لها أثر وقتى. وهذه صفة من صفات المصريين. فكل التغيرات مؤقتة، وكل الأحداث عابرة. فالكتاب مثل صاحبه، كان هنا وخرج، ولما خرج لم يعد، ولما عاد لم يجد أحداً.

■ ■ ■

أول انسان نزل على القمر كان يلف حول عنقه منديلاً هدية من زوجته. المنديل قد باركه أحد القساوسة ليهبه الله السلامة فى الذهاب والإياب!

وهذا يضعنا أمام شيئين متناقضين تماماً:

الأول: آخر ما وصل إليه العلم الإنسانى فى الملاحة الفضائية التى تعتمد على أعقد نظريات الطبيعة والرياضيات. والتكنولوجيا ــ أى تطبيق أحدث نظريات العلوم الحديثة فى خدمة الانسان الذى ذهب إلى القمر تراقبه وتوجهه ألوف الأجهزة وألوف الخبراء أيضاً.

ورغم ذلك فقد قال لى د. فاروق الباز: أنه لا يوجد أى ضمان من أى نوع لسلامة سفينة الفضاء أو رائد الفضاء منذ أطلقت أول سفينة حتى الآن!

والشىء الثانى: هو أن يتصور رائد الفضاء وزوجته أن هذا المنديل من القماش الذى لمسه أحد القساوسة من الممكن أن ينقذه من الموت.. قبل أن يصل إلى القمر.. وإذا وصل إلى القمر فإن هذا المنديل قادر على أنقاذه من الموت هناك.. وليس أنقاذه هو وحده، ولكن أنقاذ سفينة الذهاب وسفينة العودة.. وأن يكون هذا المنديل أقوى وأدق من كل الأجهزة وأكثر يقظة من ألوف العلماء وعقولهم الألكترونية. ورائد الفضاء مثل زوجته ومثل القسس يؤمنون بأن هذا ممكن!

فما هو هذا الممكن؟

أنه الإيمان بالله. أى الايمان بقوة عاقلة حكيمة رحيمة قادرة ــ بصورة خافية عنا ــ على أن تحقق ما تعجز عنه كل النظريات العلمية والعقول الألكترونية ماحدود هذه القدرة؟ لاحدود لها. كيف تعمل هذه القدرة؟ لا علم لنا.

ولكن رواد الفضاء يروون المعجزات التى ليس لها تفسير علمى ويؤكدون أنه فى ساعات الخطر رأوا أمهاتهم.. أو تذكروا واحداً من أطفالهم.. أو صرخوا فى الفضاء: يارب.. وبعد هذه الصرخة تحركت الأجهزة التى كانت قد توقفت أو أرتبكت.. هل تصدق؟ أنا أؤمن بذلك!

□ □ □

فى احصاء رسمى عن حوادث الأرهاب فى ستين دولة: ٥٠٠ حالة فى سنة ١٩٨٣ و٦٥٠حالة ففى سنة ١٩٨٤ و٨١٠حالات فى سنة ١٩٨٦..

وقد أتخذ الأرهابيون مسرحاً مفضلاً لعملياتهم: أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط ــ هذا هو مثلث الرعب!

أما الأسباب فهى سياسية ودينية وأجتماعية وأجرامية..

وليس من بين هذه الحوادث كلها ما له علاقة بتهريب المخدرات أو تزوير العملة ــ وما يدور من معارك بين الخارجين على القانون ورجال الأمن.

ومن الملاحظ أن هناك تزايداً يصل إلى ٣٠٪ سنة بعد سنة. ومعنى ذلك ان الجماعات الأرهابية تزداد قوة، رغم مضاعفة الوسائل الحديثة لضبط الأرهابيين والقضاء عليهم. ورغم الأتفاقات الدولية لتعقب الأرهاب فى كل مكان..

ولكن الأرهاب الذى يصعب مقاومته أو القضاء عليه: الأرهاب السياسى والدينى.. فلأنه سياسى فهو متعدد الأطراف. أى ان الدول التى تسانده، وتموله وتدافع عنه كثيرة. ولأن الدول الكبرى لها مصالح أقتصادية وسياسية مع هذه الدول، فانها تعمل حساباً كثيراً وطويلاً فى مطاردة الأرهاب. ولذلك فالدول الكبرى تريد أن تتفق جميعاً على أتخاذ

موقف واحد جاد ــ مع كافة الخسائر الأقتصادية، ومهما تضاعفت المشاكل الدبلوماسية.

وأمام هذا الموقف الدولى الموحد، بدأت بعض الدول التى تساند الأرهاب رسمياً تتنصل من مساعدته مالياً. وبعد أن خربت أمريكا القواعد الليبية، وهددت بمعاودة الضرب أعنف حتى يسقط الرئيس القذافى وبمقاطعته أقتصادياً، والتهديد بمزيد من الحصار حوله، تناقص الدعم الليبى لجماعات الأرهاب. ربما بعض الوقت. ولكنه تناقص. وقبل أن ينشط الأرهاب فإن كثيراً من الدول الأوروبية تدرس وتخطط لردع عنيف ــ مهما كان الثمن فادحاً. وقد بدأت عمليات الطرد لكثير من العرب المقيمين فى أوروبا. وأخذت تضيق على تحركات العرب وأقامتهم وعملهم ودراستهم فى الجامعات، وزواجهم من الأوروبيات..

فليس مما يجعل الشعوب الحديثة تحترم نفسها، أن تكون هكذا على كف عفريت ــ ويكون هذا العفريت أرهابياً سياسياً أو دينياً!

● ● ●

فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٥٦ أنفجر بركان فى جزيرة هاواى، بعد أن ظل نائماً ١٨٠ عاماً. هذا البركان قد أنفجر مرة أخرى منذ أيام.

يومها لم أكن قد رأيت بركاناً مشتعلاً.. وإنما رأيت قبل ذلك بركان استرومبولى الإيطالى ولكن من بعيد.. فكانت السفينة تقترب منه بحذر شديد. وكان البركان يبدو كعين عفريت تخرج منها النار والدخان.

أما هذا البركان فى هاواى فقد كان شلالاً من النار، نهراً من الحمم، سحباً من الدخان الأبيض فى أزرق فى أسود.

ولا أعرف كيف جرؤت مع الزميل أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم وأستأجرنا طائرة صغيرة بمحرك واحد لكى نرى البركان من فوق ونصوره.. وأرتفعت بنا الطائرة عصفوراً صغيراً فى الجو.. ونظرنا من النافذة إلى بحيرة من جهنم. وكنا نشعر بحرارة البركان فى داخل الطائرة. ورأيت الطيار الشاب يخلع ملابسه كلها، والطائرة تدور حول فوهة البركان. وأعتقد أن الصرخات خافت أن تخرج من حلقى عندما أكتشفت أن الطيار قد ترك عجلة القيادة ووقف معنا يتفرج ويصور البركان!

ولما نزلت الطائرة إلى الأرض لاحظنا أن بعض الحمم البركانية قد نفذت من جناحى الطائرة.

وكان من الممكن أن تصيب خزان الوقود ـــ والباقى معروف!

وقرأت فى الصحف ان حرارة البركان أرتفعت بعد ذلك لدرجة أنهم حذروا الطائرات والناس من الأقتراب.. ورأيت صورة طائرتنا فى الصفحات الأولى وصورة الطيار الشجاع المغامر. أما صور البركان التى ألتقطها أحمد يوسف فكانت أول صور فى العالم لهذه الظاهرة الطبيعية !

وقد مررت بجزر هاواى من أسابيع ، ولا أظن أننى كنت سأقفز إلى طائرة وأنطلق بها لأتفرج على جهنم وهى تحرق جنة الله فى المحيط الهادى . لا أظن . أولاً لأننى رأيت هذا البركان قبل ذلك . وثانياً لأن هذا البركان لم يعد فى شبابه وعنفوانه ــ ألا ترى أنه هو الذى قد كبر ٢٧ عاماً ؟!.

ناديت بوزارة للهجرة من أكثر من ٢٥ عاماً. فقد أنشغلت بسفر الشباب وهجرته إلى الدنيا الواسعة. وعايشت حيرة الطلبة بين السفارات يبحثون عن معلومات تفيدهم ذهاباً وإياباً أو ذهاباً واقامة بلا عودة. وتطوعت وساعدت وكتبت.

ووجدت عدداً من الشبان يكتبون منشورات وكتباً صغيرة تساعد غيرهم على الهجرة. وبسرعة تجيء خطابات من المهاجرين تسأل وتشكو. فقد كانت المعلومات التى لديهم قليلة والمصاعب كثيرة. ولا يجدون أحداً يسألونه عن أستخراج الأوراق وتسجيل العقود والزواج والطلاق والجندية وتحويل الفلوس.. وأكثر مشاكلهم عن طبيعة أعمالهم التى يقومون بها ولا علاقة لها بما درسوا فى مصر.. ألخ.

وكانت القنصليات والسفارات عاجزة عن حل المشاكل الجديدة على المصريين وعلى مصر. فليست لنا تقاليد طويلة فى العمل خارج مصر والهجرة والاقامة. كما ان سفاراتنا وقنصلياتنا بالاضافة إلى عجزها، أكثر عجزاً أمام البيروقراطية الوطنية.

وتخيلت وتمنيت أن تحمل وزارة الهجرة كل هذه الأعباء عن المصريين ـ أو بعضها، وكما ان تاريخنا فى الهجرة قصير ـ عشرين عاماً على الأكثر، فوزارة الهجرة حديثة الولادة. ولا عندها فلوس ولا عندها موظفون ولذلك فهى غير مقنعة لأحد فى الداخل أو الخارج.. فكيف تكون فى خدمة المصريين هنا وهناك!

ولم أجد وزارة الهجرة أستطاعت شيئاً واحداً.. ولا أحد يعرف لها مكاناً ولا عنواناً. وإذا ذهب المواطن إلى القنصلية يشكو، فإن القنصلية لا تعرف ما الذى تفعله.. فوزارة الهجرة لا تدخل فى أختصاص القنصلية، ولا القنصلية تتبعها.. ولا أحد يعرف ما هى حدود: الهجرة والخارجية والداخلية والمالية والحربية.

كنت في استراليا أخيراً ووجدتهم يصرخون ماذا نفعل. أنهم يطلبون المعلومات والاجابة عن التساؤلات.

فما لم تكن لهذه الوزارة الناشئة صلاحيات أكثر وميزانية أكبر، ومن يمثلها فى كل دول المهجر، فستبقى الوزارة أسماً لا جسماً.. ويبقى المهاجرون المصريون منبوذين من بلادهم، كأننا نعاقبهم لأنهم تركوا مصر، ولأنهم يعملون بشرف، ولأنهم يبعثون بأموالهم إلى الوطن الأم ــ وكل ذلك لا يستطيعه وزير الهجرة!

■ ■ ■

كنت قاسياً فى صراحتى مع هذا الشاب الذى جاء وفى يده عود يريد أن يسمعنى صوته وسمعت.

وكان تعليقى خفيفاً رقيقاً أول الأمر. قلت: أنت فى حاجة إلى تدريب طويل. ولابد أن يسمعك أحد أساتذة الغناء. فالألحان ليست مضبوطة تماماً. كما أنك تلهث. ونفسك قصير. فلابد من ضبط دخول وخروج الهواء. فالغناء نوع من تنظيم التنفس. ولابد من أستاذ.

ولم يتقبل هذه الملاحظة عندما قال: ولكن زملائى يقولون ان صوتى جميل، وان كانوا يوافقونك على أننى لا أعرف كيف أتنفس..

قلت: ثم أنك لم تحفظ أغنية واحدة مما أسمعتنى. لا عبدالوهاب الجديد ولا القديم ولا سيد درويش ولا عبدالحليم ولا فريد ولا أم كلثوم.. ولا أغنية واحدة. لا بد أن تحفظ كثيراً جداً. وأن تتدرب على أداء ألحان الأساتذة الكبار، قبل أن تفتح فمك بأغنية لك..

قال: أريدك أن تسمع أغنية من تلحينى.

قلت: أرفض أن أتصور أنك تلحن فى هذه المرحلة المبكرة من حياتك الغنائية والموسيقية.. ولا أريد أن أخفى عليك ان أداءك ليس دقيقاً. ولا أذنك موسيقية. وإذا كنت تريد ان تدندن ـــ كما نفعل نحن جميعاً ـــ ففى استطاعتك ولست فى حاجة إلى ان تلتحق بمعهد الموسيقى.. ولكن إذا قررت أن تحترف فلابد أن تدرس.. لا بد أن تتعلم وان تفهم وأن تتذوق وأن تتواضع. ولكن..

قال : أرجو أن تسمع أغنية من تلحينى ..

قلت : أنت كالذى يريد أن يرقص «باليه» مع أنه لا يزال يحبو.. يجب أن تحبو وأن تمشى وأن تتعلم قواعد الرقص الموسيقى الإيقاعى سنوات طويلة ، قبل أن تجرؤ على أن تفكر أو تتوهم أنك قادر على الرقص !

وكان حاضراً أحد الأصدقاء ولم أكن أعرف أنه قد درس الموسيقى والعزف على العود بالذات.. فقال له ما معناه : ان احتضانك للعود وتحريك الأصابع عليه ، ليس دقيقاً !

وهو نموذج لبعض الشبان الذين يتعجلون نهاية السلم ــ سلم الفن والأدب والعلم !

□ □ □

كثير من الناس أهتم بالجريمة التى وقعت فى بيت الملحن بليغ حمدى — هل ماتت ثم ألقى بها ، أو ماتت بعد أن ألقى بها .. أو هى أنتحرت نتيجة عدوان متعدد عليها .. هذا ما سوف نعرفه .

وهذه الجريمة قد كشفت لنا عن الذى يحدث فى ليالى القاهرة وفى بيوت كثيرة : خمر وحشيش وهيروين وفلوس وتجارة رقيق أبيض وأسمر وأحمر. فالقاهرة مدينة كبرى وفيها تلمع الثروات والشهوات .. وكل شىء يلين أمام الذهب والجنس — ومما يلين : القيم والأخلاق والمبادىء والدين والكرامة والقانون .

وقد أهتزت القاهرة لهذا الذى حدث . وازداد عطشهم وجوعهم إلى مزيد من القصص والشائعات .. وأشارت الأيدى إلى أماكن أخرى كثيرة وإلى حفلات يطير لها النوم من عيون الألوف .. وكلها تدل على ان هذه القاهرة «المعزية» — نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمى — أصبحت مدينة عصرية وإن قاعها يختنق بكثير من الأطعمة والأبخرة والدوخة والتشنجات وقد أنشغل كثير من الناس بأشياء أخرى : فهم يقولون ما هذا الثراء الذى يملكه الملحن الكبير: مديرة البيت ومدير البيت وسكرتير وطباخ وخادمة .. لقد أنشغل الناس عن الجريمة والفضيحة ، بهذا الذى تصوروا .. أن الفنان يملك من قدرة مالية على استخدام هذا العدد الكبير من الموظفين فى بيته !

وأذكر أنى قرأت قصة للأديب الروسى فياديسف . فيوم صلب المسيح عليه السلام ، سار فى طريق الآلام يحمل صليبه . والناس من ورائه يبكون

ويصرخون ويمزقون ملابسهم ويحطمون صدورهم حزناً عليه . وفزعاً مما سوف يصيب الانسانية كلها بعد ذلك ..

وفى نفس الوقت وقف رجل فوق السطوح يتابع هذا الذى يحدث . وقد وضع يده على خده وضرسه يوجعه . وهذا الوجع قد جعل حادثة الصليب شيئاً «ثانوياً» فضرسه يوجعه وهو لذلك لم ينم منذ أيام !

وكان يقول لزوجته : أنظرى أنهم يفتحون أفواههم وأنا لا أستطيع ذلك !

فكل الذى شغله فى هذا اليوم التاريخى أنه غير قادر على أن يفتح فمه . بينما هؤلاء الذين يمشون وراء المسيح قادرون على ذلك !

● ● ●

إلى جوار كل حنفية مياه فى مدينة نيويورك يوجد هذا التحذير: أقتصد فى الماء من فضلك!

وقد أقتصد الناس فى الماء، واستخدموا الورق لتجفيف الأيدى. وأستخدموا حنفيات تنفتح بضغط اليد، فإذا رفعت يدك توقف الماء..

المهم ان الناس يتعاونون مع الدولة فى الأقتصاد فى الماء.. مع أن فى أستطاعة مدينة نيويورك أن تملأ المواسير شمبانيا ــ ولكن العقل وأحترام القانون هو القاعدة!

ونحن نذكر ما الذى فعلناه فى التليفزيون وفى الصحف من دعوة (ست سنية) لقفل الحنفية.

وكعادتنا تحولت التحذيرات إلى نكت. ولأننا أولاد نكتة، فلم نعد نضحك لست سنية ولا نطيق النظر إلى ما تقول. وأختفت ست سنية إلى أن تظهر فى نكتة أخرى نضحك لها، ولا نهتم بالمعنى.. وفى ذلك دليل، على أننا لا نأخذ الأمور مأخذاً جاداً ــ وهذه علة العلل فى السلوك الوطنى!

ولذلك سوف تطفح المجارى بعد عشرين عاماً ــ مع أن المفروض أن تملأ الشوارع بعد سبعين عاماً. أما السبب فهو أننا لا نتعاون ونحن لا نتعاون لأننا لا نصدق ما يقال، ونحن لا نصدقه لأننا لسنا جادين!

وروى لى موظف فى سفارتنا فى تل أبيب، أنه فى يوم الأجازة أوقف سيارته فى الشارع وراح يغسلها بالخرطوم. ولم يبال كثيراً بنظرات الأستنكار من المشاة والسيارات. ولكن أثنين من أطفاله راحا يصرخان من النافذة ويطلبان إليه أن يكف عن ذلك. لأن التليفزيون يحذر المواطنين من الأسراف فى الماء. فلما لم يوافق الأب، راح الطفلان يبكيان معاً ــ خوفاً على والدهما. ولم يعد الأب يغسل السيارة لا بالخرطوم ولا بالماء وإنما يكتفى، كما يفعل كل الناس، بتنظيفها بقماش مبلل!

وليس أخطر من توجيه جميع المواطنين إلى تنظيم الأسرة. وليس أكثر من الأستخفاف بهذه الدعوة ــ مع أن عجزنا عن ذلك، هو مصدر تعاسة كل المشتغلين بتخطيط مستقبل مصر. أنه ليس التوجيه ولا براعته ولا خفة دمه ــ وإنما هى الروح التى تسودنا: الهزل والأستخفاف بكل أخطار حاضرنا ومستقبلنا!

* * *

ثلاثة حرمهم الله من نعمة البصر: سيد مكاوى وعمار الشريعى وشاب صاعد هو عمرو سليم. ولكن الله كلفهم أن يدخلوا السعادة على قلوب الناس.

ولا أنسى يوم أن قدم لنا الشاعر الغنائى مأمون الشناوى الشيخ سيد مكاوى منذ ربع قرن. وكان كما هو، نحيلاً مرحاً خفيف الدم جديداً على الأذن، وتراً مرتجفاً ونداياً شجياً.. ثم غنت له أم كلثوم وعدد من صغار المطربين والمطربات.. وغنى هو أيضاً. ولا يزال الشيخ سيد مكاوى أجمل صورة للأداء الشرقى.

وعمار الشريعى ليس عازفاً بارعاً فقط، ولا قائداً لفرقة موسيقية، وإنما هو مؤلف أيضاً.. فهو الذى ألف ألحاناً تصويرية جميلة لكثير من الأفلام والمسلسلات.. أما الذى قدمه لأغنيات الأطفال فمن أجمل ما أبدع عمار الشريعى، ومن أجمل ما ردد الأطفال أيضاً. وكثير من الأصوات الجميلة المحدودة المسافة والعمق قد وجدت نفسها فى أغنيات الأطفال. وأغنيات عمار الشريعى تذاع الآن من كل البرامج العربية فى المنطقة.. وتكرارها تحية للموهبة المتدفقة التى أسمها عمار الشريعى!

أما العازف الجديد عمرو سليم فهو صاحب فرقة موسيقية وهو قائدها. خفيف الدم. وقد أستمعت أخيراً إلى صوتين قدمهما فى احدى حفلات الزفاف.. الصوتان، مع التدريب والصقل، سوف يكون لهما مستقبل.

وكنا ونحن نستمع إلى محاضرات طه حسين فى الأدب ومصطفى

حلمى فى الفلسفة، نشعر بالأعجاب والخجل أيضاً ــ فالأعجاب لرجلين لا يستطيعان أن يقلبا الكتب، ولديهما هذا العلم الغزير. وهذه الموهبة على الاستيعاب والاجتهاد. ونخجل من أنفسنا كيف لا نرقى إلى هذا المستوى الرفيع من الرهبانية فى العلم والأخلاص فى أداء الرسالة.. ونخجل عندما نشكو من التعب ومن الضيق بالعلوم الكثيرة وضغط المذاكرة ورعب الأمتحانات.

وكان الأستماع إلى هذين الرجلين، وإلى هؤلاء الموسيقيين. أكبر دليل على أنه لا يأس مع ارادة الحياة والتفوق والأستمرار ــ ونعم الناس!

■ ■ ■

لا أعرف من الذى يجب أن نلومه على إلقاء الوحل على وجه كل انسان ناجح. ثم نقدمه للمحاكمة بتهمة السرقة ومص الدماء. وتعذيبه وتخويف الذين يعملون مثله، وزعزعة القيم الأخلاقية والتجارية، ثم نخلى سبيله لأنه كان بريئاً. أما المتهم الحقيقى فهو الناس والحكومة والحقد وروح التخريب..

فهل لا نؤاخذ أحداً إذا كان هناك ما يبرر ذلك؟ لابد أن نحاسب الناس. فلا أحد فوق المحاسبة.

ولكن المشكلة عندنا فى مصر بصفة خاصة هى: أننا إذا أتهمنا أحداً تفرغنا له تماماً وراح كل انسان ينحنى على أى حجر ويرمى به هذا المتهم ــ مع أنه برىء لم تثبت ادانته بعد، ويتكرر ذلك كل يوم. حتى يؤمن الناس بأن المتهم مجرم حقاً. وفجأة تسقط كل هذه التهم ضد الرجل التاجر أو المدير أو الوزير، غير أن هذه البراءة لا تلقى الحفاوة التى لقيتها الاتهامات. لأن البراءة ليست مثيرة ولا تشبع رغبة الناس فى استطعام الفضيحة والتلذذ فى التشفى. ولأن البراءة تتهم الناس بأنهم ظلموه. والناس لايحبون أن يتهمهم أحد أو يسد أفواههم عن الكلام وآذانهم عن متابعة المسلسلات الفاضحة لغيرهم من الناس!!

وسوف يذهب المتهم ليلقى جزاءه، وسوف يعود البرىء إلى عمله بعد أن تكسر زجاجه الأمامى وتهشم عموده الفقرى.. وبعد أن يتحير الناس من حوله بين الظلم الساخن والبراءة الباردة..

وسوف يسحب المستثمرون من الأجانب والعرب أقدامهم من الطريق إلى مصر لأنها تأكل بنيها بغير حق ؟!

يجب أن نلوم أنفسنا ، نحن الصحفيين ، لأننا نهول كثيراً ونسد الطريق إلى معرفة الحقيقة وذلك بفتح شهية الناس على فضائح الناس. فإذا صدرت البراءة لصالح المظلومين ، أتهمنا العدل والحكومة والحزب ــ كان الظلم هو القانون ، وكان الخراب هو الحياة !

□ □ □

لم يكن هذا الحوار هادئاً كما أنقله هنا .

قال لى : هل تحفظ القرآن الكريم ؟

قلت : نعم .

قال : وهل فهمته ؟

قلت : إلى حد كبير .

قال : إذن كيف تقول عن نفسك أنك مسلم مؤمن ؟

قلت : لأننى أعرف الأسس التى قام عليها الإسلام . وأعرف ما هو ضرورى لحياتى الاجتماعية والروحية . ولكننى لست من العلماء .

فلم يسترح إلى هذا الحوار. فعدت أقول له : أننى أتحرك ، ومع ذلك فأنا لا أعرف كل قوانين الحركة . وأنا أعيش بجسمى وأعصابى ، ومع ذلك لا أعرف كل وظائف الجسم ولا أعرف الكيمياء الحيوية .. ولا أعرف ما الذى تتغذى به الأعضاء والأعصاب .. ولا أعرف الجهاز العصبى .. وأرى بعينى وأسمع بأذنى ، ولا أدرى شيئاً من هذا الجهاز العجيب الذى هو العين الذى يجعلنى أرى .. وأذهب إلى الطبيب لكى نتعاون على حماية وصيانة العين .

فقال : هل ترى ان هذا سبب كاف لأن يتحدث كل الناس عن مشاكل الشباب وعن ضرورة تحذير المجتمع منهم مع ان أحداً منهم لم يجلس .ى شاب .. ولا ناقشه ..

قلت : لا أختلف معك . ولكن ليس بين الناس من لم يكن شاباً .. ثم ان هناك أناساً أقدر على فهم الشباب بحكم تخصصهم فى الدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية .. وهؤلاء هم أحق الناس بالحديث اليكم بل أرى ان هذه المؤهلات ليست كافية .. فمن الواجب أن يحتفظوا للشباب بقدر من الحب والرحمة والأحترام وان يعاونوهم على فهم أنفسهم ومجتمعهم ..

قال : لماذا لا تقول ذلك لبابا وماما ؟

قلت : أنهم يعرفون كل شيء ولكن لأن الحب عندهم أقوى من كل العواطف الأخرى ، فهم يخافون عليك .. والخوف منظار مكبر « يرى الحبة قبة » ويرى الطفل الصغير وحشاً كاسراً والشاب المتمرد مجرماً تحت التمرين !

وهز رأسه بما معناه : يجوز ..

● ● ●

نصف سكان مصر يعرفون كيف كنا فى هذا اليوم من أربعين ومن ثلاثين عاماً ـ بمنتهى العدل والأنصاف : لم تعرف مصر حرية الرأى والتعبير كما حدث فى عهد الرئيس حسنى مبارك . أننا لانشكو من نقص فى الحرية ، ولا من قيودها ولا سلاسلها ولا مخاوفها . فالحرية أوكسجين فى صدر كل من يملك القدرة على الكلام والكتابة والخطابة ..

ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى الصحف من كل لون وحجم والصحف الأجنبية التى تباع فى مصر دليل يومى وأسبوعى متجدد على ان الكاتب حر يقول مابدا له ، والقارىء حر يشترى مايعجبه .. لاحدث ذلك أيام أنور السادات ولا أيام عبدالناصر طبعاً ، ولا حتى أيام ملوك مصر .

والسبب هو ايمان الرئيس مبارك الصادق بأنه بغير الحرية لا تقدم ، وبغير الأمان لاشجاعة ، وبغير الضمير لاأخلاق .. ونحن فى حاجة إلى التقدم فى أمان وبشجاعة نحو السلوك القويم أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ..

وكان من الممكن أن يبقى مجلس الشعب ، وقرار المحكمة الدستورية ليس لها أثر رجعى . وإنما هو يلفت النظر إلى مجالس الشعب القادمة .

فإذا فرضنا ان أحداً تزوج وأنجب عشرين طفلاً ، وكان عمر الزوجة ١٨ سنة .. وصدر قانون جديد بأن سن البلوغ عند الفتاة هو الواحد

والعشرين. فليس معنى ذلك أن هذا الزواج باطل ولكنه ينطبق على الزيجات القادمة.

ولكن مادامت هذه رغبة عامة لحل مجلس الشعب عند الحكومة والمعارضة على السواء وان هذا هو الأسلم والأصح، والذى يعطى للأمانة والطهارة مذاقاً خاصاً تقرر الأستفتاء على حل مجلس الشعب، يستمر أو ينحل. فالرأى للشعب، والرئيس أبو الشعب وعقله وضميره.

وبعد الأستفتاء تجىء أنتخابات المجلس الجديد الذى سوف يرشح رئيساً للجمهورية ثم الأستفتاء على تجديد أختيار الرئيس مبارك لفترة ثانية ــ هذا اجماع بين كل فئات الشعب. وهذه مباركة لمبارك الذى عرفنا به ومعه حرية سوف تتسع وتتأصل فتكون قدوة مخيفة لكل الشعوب حولنا!

جلسنا نسأل إن كان أحد يعرف ممرضة تذهب إلى مريض فى بيته فى مصر الجديدة.

لم نجد. واتجهت الأصابع إلى التليفونات تبحث فى كل المستشفيات. وأخيراً والحمد لله وجدنا واحدة.

أعترضت أول الأمر على المسافة ذهاباً وإياباً من قصر العينى إلى مدينة نصر.

وكنا نعرف ذلك. فعرضنا عليها مائتى جنيه فى الشهر. أى بواقع جنيه لكل دقيقة. ولكن الممرضة المتخصصة رفضت ذلك.

فقلنا ليكن ٢٥٠ جنيهاً. فطلبت أن تجىء إليها سيارة تنقلها من بيتها إلى عملها فى قصر العينى. ثم تنتظرها وتذهب بها إلى المريض وتعود بها إلى قصر العينى. أو إلى بيتها كيفما تريد وفى أى وقت تريد، وفى أية ساعة من ساعات الليل والنهار. وذلك بدلاً من أن ينزل المريض المهدود المعذب من بيته فى سيارة تهزه وتمخمضه وتقف به عند إشارات المرور أو تقف به فيظل طول الوقت يتوجع.. وكان قبل ذلك يتوجع طول الليل!

ووافقت سيادتها على ذلك. ولكن فى كل مرة تذهب إليها السيارة لا تجدها فى البيت. وإذا وجدتها فى قصر العينى فهى مشغولة. وسوف تتصل تليفونياً تحدد موعد الزيارة. واختفت. ولم نفهم إن كان المبلغ قليلاً. وأبدى أهل المريض استعداداً لأن يدفعوا أكثر وأكثر.. ولكن

المرضة وجدت فى هذه «المأمورية» إضاعة للوقت وخسارة مادية لا يمكن تعويضها من زيارة مريض واحد.. وكانت قد سألتنا إن كان هناك عدد آخر من المرضى؟!

وهكذا نضيف إلى قائمة المفقودين فى مصر: الممرضة، إلى جانب الخادم والخادمة والعامل الزراعى والحرفيين. كلهم لا وجود لهم. وكلهم يطلبون أجراً عالياً جداً، هذا إن وجدناهم.

■ ■ ■

جلست إلى واحد من كبار رجال الأعمال فى مصر الرجل بسيط هادىء. الوجه باسم. والأعصاب فى مكانها تحت الجلد. العينان لامعتان. لا هو سرحان ولا قرفان، فقط عندما يتكلم، هنا تجد أنك أمام عبقرية متواضعة. كنت أقول وأحكى وأضرب الأمثلة. وكأن الذى أقوله هو سر الكون. ولكن أهتمامه الشديد وقدرته الفذة على أستخراج المعانى وفتح السكك وبيان الهدف، هو الذى يميزه. أنها طبيعته.. وقد أكسبه النجاح ثبات القدم ووضوح الرؤية ونفاذ الحكمة. كل ذلك دون مجهود كبير. وفى نفس الوقت يؤكد لك أن هذا ممكن لكل انسان. وأنه هو شخصياً قد جلس أياماً يأكل طعاماً أشتراه من الرصيف. ولكنه حاول واستمر وأخلص وصدق وآمن ونجح.. وأصبح اسمه جاذباً لكل من يريد أن يكون ناجحاً. فالنجاح يعدى. والأمل يعدى.. والقدوة الحسنة هى نصف الطريق. وكان قدوة حسنة لملايين الجنيهات لتعرف طريقة وتمشى وراءه وتتكاثر..

لم أسأله عن سر نجاحه. فإن الناجحين بلا أسرار. فليست لديه وصفة طبية أو معادلة كيماوية أو خرزة زرقاء أو تعويذة هندية ــ وإنما هو لا يعرف. كما ان الجميلة لا تعرف لماذا هى كذلك.. فلا الطعام الجيد ولا هو النوم الطويل ولا هى راحة البال. وإنما هو شىء «ما» فى عقله فى قلبه فى علاقاته مع الناس والله، يجعله فريداً بين البشر..

هذا الشىء ما: هو ان يؤمن الانسان بالله. وان يؤمن بان قدرته بالممارسة. وان هذه القدرة تحميها الأرادة القوية ويهديها حسن الفهم.

ولا شىء يعوق الفهم إلا الجشع والحسد..

سألته: ان كان هذا صحيحاً فقال: المهم أن تؤمن بأنك مخلص وأنك نافع .. والباقى على الله!

□ □ □

كما أفسدت الولايات المتحدة الدورة الأولمبية فى موسكو سنة ١٩٨٠، فقد فعلت روسيا نفس الشيء فى هذه الدورة سنة ١٩٨٤ — تماماً كما يعتذر الأهلى أو الزمالك عن الدورى والكأس فتضيع المنافسة القوية، ولا يكون للأنتصار معنى كبير. فالأنتصار على الكبير كبير، والهزيمة أمام القوى، تخفف من وقع الهزيمة. فقد خرج الاتحاد السوفيتى ومعه الدول الأشتراكية، وأهمها ألمانيا الشرقية التى تفوز عادة بأكثر الميداليات الذهبية فى كثير من الألعاب.

وهكذا تفسد السياسة كل ما هو رياضى.

وبذلك تفقد كلمة «رياضى» مدلولها المألوف لدينا. فأنت تقول لانسان: ياأخى كن رياضياً.. أى لا تبالغ فى النصر أو الهزيمة.. وإنما عليك أن تقبل الهزيمة والنصر على أنهما من شروط اللعبة.. والنصر والهزيمة يتناوبان كالليل والنهار..

وليس صحيحاً أن روسيا قد أنسحبت من هذه الدورة لأعتبارات تتعلق بأمن لاعبيها فى لوس انجيلوس، فقد كان من المتوقع أن تتخذ هذا القرار، أنتقاماً من أمريكا.. وأملاً فى اسقاط ريجان فى الأنتخابات القادمة.. وكانت أمريكا قد أنسحبت من الدورة السابقة أحتجاجاً على دخول القوات السوفيتية أرض أفغانستان كما منعت بيع القمح إلى روسيا. ولكن دولاً من أمريكا اللاتينية باعت القمح إلى روسيا بأسعار مرتفعة — تمرداً على العم سام وتأكيداً للذات والأستقلال فى الرأى والقرار..

وبذلك ينهار آخر المعاقل النظيفة فى هذه الدنيا ـ أى البعيدة عن السياسة .. وإذا كانت السياسة هى اللعب بالحديد، فالرياضة أصبحت لعباً بالنار...

فوداعاً أيتها المساحات الخضراء البعيدة عن تلوث المذاهب السياسية، والتى كان يذهب إليها الناس طلباً للراحة ويلعب فيها الشباب استعراضاً للبراعة وتمجيداً للبطولة ـ فقد أرتسم وجهان على كل كرة: ريجان وشرنينكو.

● ● ●

كلام كثير يقال عن المناطق المحررة من سيناء. وهذا الكلام فيه هجوم شديد علينا، واطراء كثير على اليهود. ولم أر هذه المناطق الا مرتين مرة قبل تحريرها بأسبوع. ومرة بعد تحريرها بأسبوع. وعرفت الفرق.. ولكن الذى أسمعه يؤكد ان المساحة قد أتسعت تماماً، حتى ليسقط الانسان بسهولة بين الأمس واليوم، أسفاً على ما أصابنا!

فقط أذكر مطار سانت كاترين والفندق الصغير الملحق بالمطار. المطار والفندق يديره رجل وزوجته. والعربة السياحية يقودها الرجل، وزوجته تعمل مرشدة لحجاج سانت كاترين. أثنان فقط قادران على خدمة المئات من الحجاج..

وأذكر أيضاً عندما آلت ألينا هذه الأماكن ان امتلأت بالسفرجية ذوى الأحزمة الخضراء والحمراء والطراطير البيضاء وفتيات الفنادق والمشرفات ورؤساء الجميع مع تكدس كبير فى الأطعمة والمشروبات واختفاء أوراق التواليت وظهور الذباب، وأنقطاع الماء وضوضاء الأكواب والأطباق وزعيق السفرجية والزبائن.

ولا أعرف علاجاً لذلك. لأنها مشكلتنا هنا على الضفة الغربية لقناة السويس وفى كل المدن. ولن يكون فى أستطاعتنا أن ننتج بعدد قليل من الناس فهم مكدسون ولأنهم مكدسون فهم لا يعلمون ولأننا نصدر عشرات القوانين للعاملين مع أنهم لا يعملون فقد أصبح واجباً على الدولة ان تعينهم

وان تنفق عليهم وليس فى وسعها أن تحاسبهم فى القاهرة، فما بالك إذا كانوا فى سانت كاترين.

ولا تستغرب ما يقوله العائدون من سيناء المحررة.. وان كنت أرى ان اليهود قد أقاموا بقعاً صغيرة نظيفة. ونحن لا نعرف البقع الصغيرة المضيئة وإنما المساحات الكبيرة ذات البقع الكثيفة السوداء، لانعدام النظام والنظافة!

أطفىء السيجارة التى فى يد غيرك !

نصيحة : وقبلها التى فى يدك .

لأن الأمر خطير جداً . وليس هذا رأيى ، وإنما هو رأى ألوف الأطباء فى العالم . فقد قرروا نهائياً ان بساط الريح الذى ينقل الانسان إلى السرطان هو دخان السجائر .

اطفىء السيجارة التى فى يدك . أسمعها منى . لقد فعل ذلك ملايين ، ومن المؤكد أنك تريد أن تعيش لنفسك ولأهلك . ولا تريد أن تعيش مريضاً ، ولا أن تموت وحيداً بعد ذلك .

أسمعها منى . لست حاقداً على الذين يدخنون ويجدون متعة فى ذلك . لأننى حاولت أن أدخن ولم أفلح فى أن أجعل التدخين عادة . حاولت أن أجد فيه أية لذة فلم أستطع . وأذكر ان الرئيس الكوبى كاسترو عندما علم أننى لا أدخن السيجار ولا أجد فيه متعة كاد يلقى بى فى أحد المحيطين : الهادى أو الأطلسى . وأصر على أن يعلمنى كيف أدخن . وأمسك سيجاراً طويلاً وغمسه فى القهوة حتى أبتل جانب منه . ثم قضمه بأسنانه . وأشعل السيجار وقال لى : تستطيع الآن أن تدخن .

وظللت أسعل حتى الصباح . ومع ذلك أصررت على أن آتى معى بشنطة مليئة بالسيجار الكوبى الفخم . وفى الطريق إلى مصر أقتنعت بأننى لا أصلح للتدخين . ووزعت الشنطة على الأصدقاء المدخنين .

وقيل لى أن تشرشل عاش حتى التسعين يدخن .. وتذكرت آخرين عاشوا حتى المائة والخمسين يأكلون الزبادى !

فليس لطول العمر أو قصره دخل فى التدخين. فالأعمار بيد الله، والمرض بأيدينا .. والسيجارة رمز لذلك : فهى كفن أبيض حول جثمان أوراق شجرة تنبت فى المناطق الحارة !

وأمس قال لى الأمير فيصل بن فهد راعى الشباب فى السعودية أنه قرأ لى مقالاً أحذر فيه من التدخين .. قبل أن يكمل المقال أسقط السيجارة من يده وقتلها تحت قدميه .. وإلى الأبد ! .

وأنت حاول أن تبدأ بنفسك ثم حاول أن تقنع غيرك .. لأنه ليس من حق أى انسان أن يفسد عليك هواء الأتوبيس والغرفة والسينما بدخان سجائره .. فالذين يدخنون يفسدون علينا الهواء، وينقلوننا معهم إلى حيث النهاية التعيسة .. إذن لا بد أن نكتم أنفاس هؤلاء الأنانيين الذين يعكرون صفو الهواء الذى نقيناه عندما فطمنا أنفسنا عن التدخين !

■ ■ ■

•

لا ألوم أحداً من الأخوة العرب على أنه جاء إلى مصر وسهر وسكر وضرب وهرب. وأنه وأنه.. فهو لم يقتحم بيتاً، ولا ألقى بنفسه على أحد.. وإنما هو وجد باباً مفتوحاً فدخل، وسريراً ناعماً فنام، وأحضاناً دافئة فاحترق، ودخاناً أزرق فاختنق، وطولب بالأجر فدفع..

وقد حدث ذلك كثيراً وطويلاً فى بيوت لا يمكن حصرها، ولولا ان سيدة ماتت قتيلة أو منتحرة فى بيت الملحن بليغ حمدى، ما عرفت الملايين شيئاً من هذه الفضيحة التى فيها كل عناصر المأساة والمهزلة ــ وكل ما يدعو إلى حقد الناس وشماتتهم أيضاً. ففى هذه الفضيحة: جنس ومال ومصريون وعرب وخمر وحشيش.. وفيها شهود الزور وفيها الذين يعلمون ويسكنون. والذين يزورون وهم يعلمون. وفيها «القوادون» تجار وسماسرة الملذات، والذين هم عار على مصر!

فما الذي نقوله للكثيرين من الشباب؟ وكيف نجرؤ أن نواجه الصغار بالحقيقة؟ وما هى الأعذار التى نقدمها للذين يخافون على الدين والأخلاق والوطن والتربية والتعليم؟ وهل هذه هى القاهرة، وهل القاهرة هى مصر؟ وهذا الذى حدث يمثل كم فى المائة من حياة الليل فى بلادنا؟

بعض الناس الطيبين يتساءلون: إذا كانت السعودية تمنع أية امرأة من دخولها إلا إذا كان لها «محرم» فلماذا لا نفعل ذلك وبلادنا مقدسة عندنا كما ان السعودية مقدسة؟ ولكن السعودية لا تشترط المحرم إلا لمن يقوم بأداء الحج أو العمرة ــ هذه هى تعاليم الإسلام. وليست السعودية كلها مقدسة.

فهى لا تشترط ذلك لمن يزور أية مدينة أخرى غير مكة . وإذا كانت تفعل أحياناً ، فلأسباب الأمن وحماية المجتمع ولمنع الهجرة .. وقداسة بلادنا سياسية .. ولا يوجد مكان فى العالم ليس به فساد . فحيث يوجد الانسان توجد أمراضه الجسمية والأخلاقية ــ الجنة نفسها كان بها شيطان !

ولا أظن أحداً يعطف على أطراف هذه الفضيحة ــ ابتداء من بليغ حمدى وانتهاء برجل الأمن السابق الذى يعمل سكرتيراً للمليونير السعودى . فهم جميعاً غارقون فى الوحل الذى يضعه الناس لهم فى كل بيت ــ وليس ذلك إلا جزاء من العقـاب !

□ □ □

لا أعرف من أين أتينا بهذه التسمية : الانسان العربى ..

لا بد أنها جاءت من لحظة انحطاط للروح المعنوية فحاولنا أن نرفع أنفسنا بأنفسنا فقلنا الانسان العربى ..

أى أننا لسنا مواطنين عرباً ، وإنما نحن بشر من نوع خاص ..

ولا يصح أن يقول الانسان المصرى والأنجليزى والايطالى والفرنسى .. فهم جميعاً بشر « ــ انسان » ولهم أماكن جغرافية ينتسبون إليها ، ويتحددون بها . فكما ان هناك قارات وهناك عائلات لغوية وعائلات لونية وعلائلات عنصرية ودينية .. وكلها تفرق بين الناس .. وفى نفس الوقت تجمع الناس تحتها ولكنهم جميعاً يوصفون بأنهم بشر .. أى كلهم انسان !

ونحن نتحدث عن « الانسان المصرى » ــ ؟! ــ ونعطى لأنفسنا صفات خاصة ، لا نظير لها عند بقية الشعوب الأخرى ، وهذا يحتم علينا أن نصف أنفسنا بأننا أنسان آخر ــ أو أننا غير بقية الشعوب .. ولكننا لم نمض فى دراسة كل ذلك .. فنقارن بين الانسان المصرى والانسان الهندى والانسان الأمريكى .. ونخرج بنتيجة حتمية ان الانسان المصرى ، الذى هو أنا وأنت مختلفون تماماً فى عدد العيون والأصابع ومداخل ومخارج الجسم الانسانى .. وأننا هبطنا إلى الأرض من كوكب آخر .. إلى آخر الغلط والمغالطات التى لا تفيد غير « تضخيم » الشخصية المصرية وتعقيدها ولومها لوماً عنيفاً على أنها « انسان آخر » .. ومع ذلك فهو انسان متخلف .. فكأن نعطيه لأنفسنا ، نأخذه بسرعة وبعنف ..

ولا بد أن شعوباً أكثر علماً تسخر من هذا الجهل والغرور معاً .. فينطبق علينا ما قلناه على أنفسنا : يا أمة ضحكت من جهلها الأمم !

ولكننا نقبل هذه الغلطة العلمية لأنها تنفخ فى كبريائنا ، وتوقد غرورنا ، وتجعلنا نمشى فوق رءوس بقية خلق الله دون سبب معقول !

● ● ●

شيء لا هو غناء ولا هو أداء قد أنتشر الآن . وهو مقبول من الناس ، لأنه جديد ، ولأن الذين يقومون به شبان جادون مخلصون مثلاً : فرقة المصريين . لا يعجبنى كلامها ولا أداؤها ، ولا تطربنى فهم ليسوا مطربين . وإنما هم وسط بين الأغنية والمونولوج فى أطار جديد .

وسبقهم إلى ذلك محمد نوح . ولا يعجبنى محمد نوح أنه فى كل مرة يظهر على المسرح يعتذر عن اللون الذى يقدمه . وهو ليس فى حاجة إلى ذلك ، فما دام الناس يصفقون له ، فهم إذن سعداء بما يقدمه لهم . فالأعتذار للناس يصيبهم بالخجل من أنفسهم . لأن معناه : أنهم يحبون شيئاً يستحق الأعتذار عنه ..

وفى ليلة واحدة استمعت إلى أغنية لعفاف راضى أسمها « القمر » ليست غناء .. وإنما هو وتر رقيق ناعم يتردد جميلاً . وسمعت أغنية « غرباء » لهانى شاكر أنها هى الأخرى وتر هامس حنون حزين ، جميل أيضاً . وكل منهما تستغرق بضع دقائق ..

ثم إلى فايزة أحمد فى أغنية قصيرة : أنها أروع ما عندنا من جمال الصوت والأداء والحضور والبلاغة الموسيقية ..

وأخيراً إلى السيدة وردة الجزائرية وجردت نفسى من كل أنفعال سابق وأعطيتها أذنى . وقد أساءت أستخدامها تماماً حين ملأتها بالأوتار الممزقة والطبول المهشمة ..

ويبدو أن السيدة وردة قد تجاوزت «عمرها الأفتراضى» فى الغناء. وهو الخطر الذى يهدد بعض المطربين والمطربات.

ولذلك يتمسك الناس بالصوت الجديد، أو بالأداء الجديد، حتى لو لم يكن جميلاً!

لا بد أنك رفعت رأسك بسرعة إلى فوق لأن أحداً قد ألقى عليك ماء أو تراباً أو قشر لب أو فاكهة . حدث كثيراً ..

ولا بد أن لاحظت على نفسك وعلى غيرك أنه فتح نافذة السيارة وألقى عقب سيجارة ، بدلاً من أن يضعها فى « طفاية » السيارة التى أمامه ..

أنها نفس ظاهرة ألقاء الحيوانات الميتة فى النيل ..

فلماذا ؟

لا بد ان يكون الكسل واللامبالاة والجهل .

فالذى يلقى الزبالة والكلاب والسيجارة بدلاً من أن يلقى هذه المخلفات فى المكان المخصص لذلك ، وجد أنه من الأسهل أن يلقى بها على طول ذراعه.. فالذى يركب سيارة مثلاً أمامه « طفاية ». ولكن وضع السيجارة فى طفاية يحتاج إلى أن يفتح الطفاية وأن يضغط على السيجارة مرة وثلاثاً حتى تخمد أنفاسها.. وهذا يرهقه !!

أسهل أن يلقها والعة من النافذة. وكذلك الذى يلقى عليك مخلفات البيت .

ثم أنه لا يبالى بالآخرين ، ولا يحترمهم . ولا يسأل نفسه ان كان يلوث ملابسهم أو يحرقها ..

ثم أنه جاهل لأنه لا يعرف نهاية الزبالة التى يرميها عشرة ملايين من

سكان القاهرة وحدها فى الشارع كم يؤدى ذلك إلى القذارة والقذارة إلى جذب الذباب .. وكم يؤدى ذلك إلى أرهاق الكناسين وتجار الزبالة ..

وهو لا يفكر أيضاً فى دفن الحيوان الميت فى شاطىء النيل .. أو بعيداً عن النيل . ولكن أسهل من أختيار مكان الدفن ـــ أى جرجرة الحيوان أو حمله إلى مكان بعيد ، وحفر الأرض أو أحراقه أن يلقى به فى النيل ..

ومئات غيره يفعلون ذلك .. وهكذا يتجمع فى النيل كل المخلفات الانسانية والحيوانية والنواتج الكيماوية ..

وكل ذلك علينا أن نطهره مرة أخرى ، ليكون شراباً طهوراً ـــ كم تتكلف الدولة ؟ كم تأخذ من ميزانيتها . وكان فى وسعها أن توفر ذلك ، لو أن أحداً من المواطنين قد بذل جهداً قليلاً ، أو فكر أو كان لديه أدنى احساس بالآخرين !

ومن يقرأ « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك ، يجد أن المصريين فى القرون الثلاثة الماضية يفعلون ذلك ـــ ألا ترى أن « القذارة » عاهة مصرية قديمة ؟!

■ ■ ■

مع خطابات من عدد من الأصدقاء أساتذة جامعة أسيوط جاءنى شاب مهندس يريد أن يتفرغ للغناء. يقولون أن صوته جميل. يكفى أن أسمعه يقلد عبدالحليم حافظ. وجاء الشاب. قال إنه يريد أن يسمعنى بعض الآيات القرآنية. وخلع الجزمة وتربع على الكرسى: بسم الله الرحمن الرحيم أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً.

ووجدت صوته قبيحاً ونطقه شنيعاً. وأذنه مغطاة بالشمع.

وجاء دور عبد الحليم حافظ. فطلب منى أن أختار أية أغنية فقلت: أغنية سواح.. من أجمل ماغنى عبدالحليم حافظ ولحن محمد الموجى وكتب محمد حمزة!

قلت: أنت فى حاجة إلى تدريب كثير وطويل جداً، وإذا كنت تغنى يجب أن تتوقف تماماً. ولا تصدق الذين يقولون أن صوتك جميل ولا حتى الأساتذة الذين حملوك هذه الرسائل. إنهم مجاملون أرادوا التخلص من ألحاحك. وأنا أرى انك لحوح. وإنك صاحب جرأة، ولكنك لست صاحب موهبة.. إلا إذا..

فقال وكأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قلت، وكان الشمع قد سد ما بقى من ثغرات فى أذنه: إلا ماذا؟

قلت: إلا إذا كنت تريد أن تتعلم أفضل وتتذوق أعمق.. أى أن تكون لك ثقافة غنائية موسيقية!

وأخترقت كلماتى حاجز الصوت بينى وبينه فقال لى: هل رأيت سيادتك البرنامج الذى ظهرت فيه الأستاذة بثينة فريد عميدة الموسيقى أنها أمتدحت صوتاً قبيحاً جداً. وأنا صوتى أحسن وأريد أن أصل إلى التليفزيون ثم أموت بعد ذلك!

والحق معه. فالسيدة بثينة فريد كانت مجاملة أكثر مما ينبغى. ولم يعجبنى تعليقها ولا تفسيرها ولا تبريرها.. وإذن كان الصوت الذى علقت عليه قبيحاً أقبح.. بل ما كان يجب أن يكون لها رأى.. فأما أن تقول الحقيقة، وأما أن تسكت. فلا قالت الحقيقة ولا سكتت.. وهذا الشاب أحد ضحاياها. وقد أرسلته إليها لتقدمه للتليفزيون ويموت على يديها!

□ □ □

في سنة ١٩٦٠ كنت أتباهى بأننى أول من سافر إلى الكونغو بسيارة جيب فوصلتها فى سبع ساعات. وهى حقيقة. بل أول من ركب سيارة جيب كانت تمشى بظهرها. وتوقفت فى الخرطوم ساعة واحدة. ثم واصلت الطريق إلى الكونغو حيث توقفت فى مطار كوكيا تفيل. وهذا صحيح.

ولكن لا بد من تفسير. فقد ركبت فى طائرة أمريكية حربية مع قوات الطوارىء المصرية بقيادة اللواء سعد الشاذلى. وجلست أمام عجلة قيادة سيارة جيب فى داخل الطائرة.

والسيارة قد أدارت وجهها إلى باب الطائرة ـ وكان يشاركنى فى هذه السيارة الزميل فوميل لبيب مدير تحرير «المصور»!

وكنت أضيف إلى هذه الحادثة الفريدة أننى أول كاتب مصرى يدور حول الكرة الأرضية فى ٢٢٣ يوماً ـ رويتها فى كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم».. وكان ذلك فيما بين يونيو سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦٠..

ولكن وجدت من هو أكثر تفوقاً: رائد الفضاء الألمانى الشرقى سيجموندديان الذى دار حول الأرض فى سفينة الفضاء السوفيتية ساليوت ٦. لقد ركب دراجة مثبتة فى السفينة وراح يحرك ساقيه طول الوقت. فكان أول من دار «حول» الأرض فوق دراجة بلا توقف فى ساعة ونصف!!

ولكن واحداً فى التاريخ هو الذى قرر أن يدور حول الأرض.. يدور حولها وهو على سطحها لافوقها فى طائرة أو سفينة فضاء وإنما على قدميه.. هذا الرجل اسمه ديف كونست فقطع ١٥ألف ميل وأهلك واحداً وعشرين زوجاً من الأحذية.. وقتل الأفغان واحداً من أخوته.. ولم تسمح له الصين بعبور أراضيها.. فما كان منه الا أن ذهب إلى استراليا فسار على قدميه مايعادل المسافة داخل الأراضى الصينية.. ووصل هو وأخوته إلى كاليفورنيا يوم ١٥أكتوبر سنة ١٩٧٤ أى بعد أربع سنوات ونصف من بداية السير..

وقد أوصى إذا مات أن يحملوا جثمانه، على حسابه، فيعبر الأراضى الصينية فى نفس الطريق الذى كان ينبغى أن يقطعه وهو حى!

● ● ●

من عشر سنوات سألنى الرئيس الفلبينى ماركوس عن القذافى. ثم نظر إلى خريطة على الحائط مندهشاً جداً للمسافة الشاسعة بين ليبيا وبين جزيرة مندناو التى يعيش فيها المسلمون ويلقون قنابل ومدافع تشجيعاً لهم على الأنفصال من الفلبين. ومصر تقف مع الفلبين ضد المسلمين — لا باعتبارهم مسلمين طبعاً، ولكن لدعوتهم الأنفصالية عن الدولة الأم.

وسألت الرئيس ماركوس ان كان يعرف القذافى فأجاب: أنه لا يعرف إلا أنه رجل غنى ينفق أمواله على المتاعب فى كل مكان، دون أن يجنى من ورائها شيئاً.. أى انه إرهابى من أجل الأرهاب!

ولا بد أن تكون زيارة زوجة الرئيس الفلبينى إلى ليبيا بعد ذلك، لمعرفة القذافى أكثر أو محاولة التأثير عليه.. ولم أتابع نتائج هذه الزيارة. وان كان من الواضح ان القذافى لم يعد يبعث بالمواد المتفجرة إلى الفلبين، وإنما حولها إلى ايرلندا وبريطانيا وأيطاليا وغيرها..

قال لى سفير صينى: أنه من الممكن ان يكون هناك مفكر فوضوى أو زعيم أرهابى.. ممكن. ولكن ان يفكر رجل مثل القذافى فى تحويل الصين (ألف مليون) إلى الإسلام بالقوة فهذا جنون.. فنحن لم نستطع ان نحولهم إلى الشيوعية إلا بصعوبة!

وقد نجح القذافى فى عمليات أرهابية كثيرة. ولن يكتفى. وكلما أرتكب جريمة، ازداد خوفه، فهو عدو لعشرات الدول. وكلها تحاول

أغتياله . ويكفى ان تراجع صور الحرس الخاص للقذافى فى السنوات الأخيرة . فأكثر حراسه من الأوروبيين فهو لم يعد يثق فى مواطنيه . ولم يعد يثق فى الرجال ، فقد تولت الفتيات حراسته أيضاً . ولم يعد يطمئن إلى بيت واحد ، فلديه عشرات البيوت والخيام .. وفى الليلة الواحدة يذهب إلى بيت ، ويبعث بحراسه إلى بيت ثان ، ويدعو ضيوفه الأجانب إلى بيت ثالث ، وإذا تحدث فى التليفون فمن بيت رابع .. ويغير السيارات والطيارات .. وقد أزداد خوفه على أولاده وزوجته . فهم لا يقيمون معاً فى بيت واحد ، بل كل واحد من أولاده فى بيت .. ولقاؤه بزوجته تتولاه المخابرات .. تتولى تدبيره وأخفاءه . ولذا فإن لم يكن القذافى مجنوناً ، فمن المؤكد أنه سوف يكون كذلك !

سألت الرئيس الأمريكى جيمى كارتر عن كتابه المقبل . فقال أنه أشترك مع زوجته فى تأليفه وأنه سوف يصدر فى مايو القادم . وأنها تجربة مشتركة تعبر عن حياتهما الزوجية ، والتى أستغرقت أربعين عاماً .. وعن حياتهما الأجتماعية والسياسية ، والأنتخابات التى نجح والتى فشل فيها .. أنها تجربة غريبة عليهما .

قلت : ليست غريبة تماماً .. فى الأدب الأمريكى نماذج من هذا النوع . أهمها وأروعها تجربة الكاتب المؤرخ الكبير ول ديورانت وزوجته السيدة اريل ديورانت .. ألفا معاً كتاب تاريخ الحضارة ـ وهو أروع ما ظهر فى اللغة الأنجليزية فى عشرات السنين . ثم ألفا معاً قصة حياتهما . فكان كل واحد منهما يكتب فصلاً ..

وإذا بالرئيس الأمريكى جيمى كارتر يفرح وتظهر عليه سعادة الأطفال وهو يقول : نعم .. قرأته .. عندى نسخة منه . وطلبت من المؤلفين ان يوقعا عليها ! .

لو رأيت الرئيس الأمريكى كيف قال هذه الكلمات القليلة .. لو رأيت النور على وجهه .. لو رأيت براءة الأطفال .. لو رأيت كيف قال أنه كان حريصاً على ان يوقعا على هذه النسخة .. كأنه ليس رئيساً لأمريكا ، كأنه طفل صغير أهداه كاتب كبير أحدث كتبه ، ثم وقع عليها ..

لقد أسعدتنى كمؤلف يا سيادة الرئيس دون أن تدرى .

فهو رئيس لأعظم دولة فى العالم، لقد أسعده ان كاتبين أهدياه كتاباً وأضافا إليه التوقيع ..

لقد توفى الكاتبان العظيمان. وقد روت الزوجة هى أيضاً أن من أسعد أيام حياتها أن زوجها كتب أهداء لها ــ كمؤلف لا كزوج!

وقد حكى لنا ونستون تشرشل فى لقائه بستالين وروزفلت وكاى شيك فى بوتسدام، ان ستالين فى نهاية اللقاء قد طلب إليه أن يوقع فى الأتوجراف. قال تشرشل: لقد كنت سعيداً انه طلب منى ذلك كمؤلف لا كرئيس وزراء بريطانيا!

مثل هذا الشعور هو الذى يجعل الأدباء والشعراء والفنانين يرضون عن نصيبهم فى هذه الدنيا.. أنهم أبقى وأطول عمراً من الرؤساء والملوك ..

كأن السماء قد خيرتهم بين العرش والقمم الباردة. فاختاروا الأبدية الباردة ومعها العذاب والفقر!

■ ■ ■

في وقت واحد قامت مظاهرات الطلبة في باريس وفي شانغهاى وفي العاصمة بكين وفي الما اتا عاصمة جمهورية كازاكستان السوفيتية .

وفي فرنسا كانت أعتراضاً على تحديد الدخول للجامعات مع زيادة المصاريف .. وفي الصين أحتشد ألوف الطلبة يطالبون بالحرية والديمقراطية .. وأنضم إليهم عدد من العمال . تعرض لهم البوليس . ويقال أعتقل وضرب .. ولكن البوليس نفى أنه أعتقل وأنه أستخدم العصا . ولكنه طالب بضرورة حفظ النظام والأمن وضبط النفس ـ ثم أن المظاهرات ضد القانون .

والتف الطلبة حول الصحفيين الأمريكان يسألون أن كانت هناك مظاهرات في مدن أخرى .. وتظاهر الطلبة ثم العمال في الما اتا .. ولكن بسبب ان الدولة قد عينت رجلاً من جمهورية روسيا بدلاً من رجل آخر من جمهورية كازاكستان ذات الأغلبية الإسلامية . وأن الدولة حريصة على سيطرة الروس على مراكز الحكم والأدارة والسياسة في هذه الجمهورية الأسيوية ..

وكان الرئيس بريجينيف الذى تهاجمه الصحف السوفيتية الآن وتتهمه بكل الصفات غير الماركسية .. قد أوصى بضرورة تشجيع الأقليات على المشاركة في الحكم والمكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى ..

وكان جورباتشوف السيد الحالى للكرملين قد أتخذ سياسة تشجيع الأقليات ، فأختار وزير خارجيته شيفردنادزة في المكتب السياسى ، وهو

ثانى مواطن من جمهورية جورجيا يصل إلى هذا المكان الرفيع ـ أما الأول فقد كان الزعيم ستالين ..

وفى بعض الجامعات الصينية علق الطلبة لافتات على جدران الجامعة والمدينة يطالبون بمزيد من الحرية الشخصية والحريات العامة .. ولكن أخبار هذه القلاقل لم تنشرها الصحف الكبرى . وإنما تسامع بها الطلبة وتناقلوها ..

وفى نفس الوقت نشط بركان فى جزر هاواى ، وكان خامداً من ٢٧ عاماً .. وتدفق هذا البركان دليل على الأحتباس الطويل للغازات والغضب ثم أتيحت له فرصة فانطلق . فهل الذى حدث حريق موضعى .. غضب فى احدى المدن .. رمز .. وبعد ذلك يخمد ويصبح ماضياً ، أو هو مقدمة لما هو أكبر ؟ .

سؤال مبكر جداً . وسوف نرى .

□ □ □

لا بد أن تكون شخصية سعد زغلول هى الساحرة الباهرة أما أسلوبه فى الكتابة فليس كذلك .

وما كتبه أستاذنا العقاد عن سعد زغلول . يعتبر من أروع الدراسات التاريخية والسياسية والنفسية . وقد كان الأستاذ العقاد من أشد الناس أعجاباً بسعد زغلول .. حدثنا عنه كثيراً . وضرب به وله الأمثال فى الشجاعة والصدق والزعامة ، حتى لم تمتلىء عين العقاد بأى زعيم سياسى آخر ..

وما كتبه الأستاذ مصطفى أمين عن سعد زغلول جعل منه فيلسوفاً وقاضياً ومؤرخاً وثائراً وسابقاً لعصره ومتقدماً على كل العصور . وكما كانت عبارة العقاد محكمة منطقية ، فعبارة مصطفى أمين كانت من نار ونور من أجل أن نقيم تمثالاً لسعد زغلول فى كل عبارة وصفحة وكتاب وميدان وكل قلب !

حتى ظهرت مذكرات سعد زغلول التى نشرها وراجعها المؤرخ الكبير د . عبد العظيم رمضان مفاجأة . فعبارة سعد زغلول ركيكة وفيها أخطاء املائية ونحوية ولغوية . وتركها د . عبد العظيم رمضان كما هى دون اشارة إلى ذلك . ولو فعل لكثرت الهوامش .

والأمانة تقتضى ان تنشر المذكرات كما تركها صاحبها ، وكان سعد زغلول حريصاً على ان تبقى كذلك وان تنشر أيضاً كما هى . وهذه المذكرات تتناول الهام والتافه فى حياته اليومية . وهى أقرب إلى

« الأعترافات » .. والتفريج النفسى .. فهو يخفف من وطأة ضغوطه وتوتراته النفسية بأن يقول ويحكى ما يدور بينه وبين نفسه .. وطبيعى أن يتحدث الانسان إلى نفسه فيقول : يا واد .. أنت عملت أيه النهاردة .. ولا يقول : ما الذى ضيعته اليوم يا سيد .. أو يا أستاذ .. أو يا زعيم ..

فقد تحرر سعد زغلول من قيود حياته اليومية وقيود النحو والصرف والفصحى وكأنه تمدد على كرسى الأعتراف يقول صادقاً بلا حفاوة لصناعة الكلام — فكان الصدق عنده أهم من الفن — ربما !

فأين ما كتبه سعد زغلول مما أبدعه الزعيمان المفكران والأديبان الكبيران تشرشل وديجول ؟

وتشرشل قد حصل على جائزة نوبل فى الأدب ، وديجول يعتبر من كبار المفكرين أصحاب الأساليب فى الكتابة الأدبية ..

● ● ●

تصور كلباً قد أمسك بنطلون أحد المارة. فإما أن تقتل الكلب، وإما أن تخلع له البنطلون. وهكذا تنتهى محاولة تمزيق البنطلون أو الساق التى فى البنطلون.. ولكن إذا كان هذا الكلب أسداً موجوداً فى كل خلية من خلايا الجسم الانسانى، لا أحد يستطيع أن يقتل الكلب ولا أن يتخلى له عن ملايين ملايين الخلايا.. إذن فهذا المرض الجنسى الذى هو السرطان ليس إلا ملايين ملايين الكلاب تمزق إنساناً تحت جلده. وهو وحده يقاوم ويتساقط. أما الدواء فهو عبارة عن محاولة إطلاق النار على أسد وسط مليون مليون كلب. فالرصاص الذى يتجه لقتل الأسد لا يصيب إلا ملايين الكلاب. وهكذا تجد ان المصاب بهذا المرض يتوجع من الدواء أكثر من الداء.. وان الذى يوجع ليس الكلب الذى ينهشه، ولكن الكلاب الأخرى المذعورة من الكلب الأسود. شيء كهذا يصيب جسم المريض.

ويكفى أن يصاب المريض بهذا الداء، فتنحط معنوياته. فهو مرض سيء السمعة. والطب أمامه عاجز. فلم يعرف منه إلا القليل. والقليل الذى يعرفه الطب، يشبه دعاء أهالى المريض: نوع من حسن النية والمشاركة الوجدانية!

والله سبحانه وتعالى هو الذى ألهم أطباء من مثل د. محمود محفوظ ود. رضا حمزة، أن يكون الابتسام أسلوبهم فى الحياة، وأن تكون جرعة الأمل والتفاؤل هى طعامهم اليومى. ومن هذا الأبتسام وهذا التفاؤل يهون على المريض الألم، وتقصر ساعات العذاب.

هل كان هذا المرض معروفاً قبل ذلك ؟ . لا ندرى . ولكن ليس بعيداً أن يكون قد أصيب به بعض الناس ، ولكن أحداً لم يعرف ما هو ولا ما هو أسمه . ولكن الطب الحديث قد دلنا عليه .. والحياة الحديثة المليئة بالمواد الكيماوية السامة والاشعاعات القاتلة ، والانفعالات النفسية المحرقة للخلايا ، كلها قد ساعدت على أنتشاره .

والذى نعيبه على الأطباء من أنهم جامدون لا ينفعلون ولا يهتزون لأوجاع المرضى وحزن أهليهم ، هو من فضل الله علينا وعلى مرضانا .. فلولا ذلك ما أفلحوا فى تطوير وسائل التشخيص والتحليل والبحث عن دواء لهذا الداء .. والله وحده هو الذى يلهم المرضى هذا الاستسلام لقضائه ، .. وان عذابه رصيد من الحسنات والجنات عنده بعد ذلك .

الملك الحسن كيف استطاع أن يسكت العالم العربى كله، حكومات وشعوباً وصحفاً تطبع فى باريس ولندن.. وهو الذى استضاف المغاربة من اسرائيل لعقد مؤتمر كبير فى هيلتون الرباط ــ مؤتمر من يهود اسرائيل حضره اعضاء الكنيست يتقدمهم الوزير هارون أبو حصيره ــ جده الحاخام أبو حصيره الذى له ضريح بالقرب من دمنهور يزورونه رسمياً كل سنة..

لقد اكتفى الملك الحسن تعليقاً على الشتائم واتهامه بالخيانة والعمالة بأن قال: هذه مسألة داخلية!

أى أنها من شئون المغرب، أى من شئونه هو وحده.

وأكثر الدول تطرفا قالت: ان الملك لم يطلعها على ذلك!

ولكن بعد أن علمت فما الذى فعلته؟ لا شىء!

أهى شجاعة الملك الحسن. أهو ضعف العرب وتخاذلهم وتفككهم!

أهو إيمانهم الخفى بأنه لا بديل عن السلام، وأن هذا السلام يبدأ بالحوار.. وأن العرب إذا كانوا يحسدون اسرائيل على يهود أمريكا، فلماذا لايحسدون الملك الحسن على مغاربة اسرائيل، الذين يستخدمهم فى الضغط على السياسة الاسرائيلية.. ويستخدم اموالهم وخبرتهم فى اقتصاد المغرب..

والملك الحسن سياسى موهوب فهو يبيع الفوسفات للسوفيت، ويعطى تسهيلات لامريكا ويعقد المؤتمرات الاسلامية فى بلاده، ويستضيف

مغاربة إسرائيل والاسرائيليين ، وهو أمير المؤمنين ، أكثر الناس حبا للفن والشعر والغناء والحياة ..

وهو قبل ذلك الذى استضاف المصريين ليلتقوا بالاسرائيليين قبل مبادرة السادات فعنده التقى السيدان حسن التهامى وموشى ديان . وكانت اللقاءات بعلمه .. ومن المغرب وفيها تم الاتفاق على رحلة السادات إلى القدس ..

أنها — إذن — الواقعية الجديدة فى السياسة العربية — ربما !

■ ■ ■

الأكل مثل : كرة القدم . أناس يأكلون وأناس يتفرجون وأناس يحسبون اللقمة على الذين يأكلون ..

فهناك أناس يهجمون على الطعام بقصد أن يلقوا به فى شبكة المعدة . وهذا هو المهم . ولكن ليس من الضرورى أن يجدوا لذة فى الطعام . لأن هناك فرقاً كبيراً بين أن تأكل وبين أن تستطعم الذى تأكله . وأكثر الناس يجلسون إلى الطعام وتمتد ايديهم هنا وهناك وبسرعة غريبة يختفى الطعام وينتهى كل شىء بعد ذلك . وبعد انتهاء الطعام يهجمون على مجموعة من العادات الأخرى : مثل النوم أو النزول إلى الشارع أو الذهاب إلى المقهى .. بنفس السرعة وبنفس المعنى . أما المعنى : فهو الانتهاء من هذا الذى أمامهم !

وهناك أناس يتفرجون على الأكل .. ينظرون إلى الذى أمامهم . وقد يختار الواحد منهم لقمة من هذا ، وملعقة من ذلك . ثم يدفعون كل شىء بالماء أو الشراب .. والطعام فى حد ذاته ليس هو الاهم .. وإنما الفرجة .. المشاركة .. العقدة .. الكلام أثناء الطعام .. المهم هو « جو » الطعام وليس الطعام نفسه . ولذلك بعض الناس يجد متعة فى أن يذهب كل يوم إلى مكان .. أو إلى بيت .. لتصبح للاكل لذة .. فهو يقوم بعملية « تغيير هوا » ليكون للاكل طعم مختلف !

وهناك أناس يحسبون الاكل باللقمة والملعقة . وهؤلاء هم المرضى .. أو هم الذين لا يريدون أن يتضاعف وزنهم . فالمريض يأكل ويحسب كم

لقمة وكم كوبا . وأين يذهب هذا وذاك ، وما الذى يفعله اللبن مع السمك ، وما الذى يفعله البيض مع الكعك .. وما هى الاقراص التى يأخذها قبل وبعد وأثناء الاكل . إن الأكل يصبح نوعا من الحرمان المدروس ، أو من الجوع المنظم أو الخوف الطبى ..

فى تقرير لمؤسسة التغذية يقول : أن أكثر الناس حريصون على الانتهاء من الطعام — أى أنهم لا يأكلون ولكن يتخلصون من الطعام . وهم بذلك لا يتذوقون ولا يجدون لذة فى الطعام ..

والذى لا يجد لذة فى الطعام ، أو لا يحاول ، لا يجد لذة فى أى شىء آخر .. لأنه إنسان يشعر أن الأكل « مهمة » ويجب أن يقوم بها والسلام .

وكذلك حياته يريد أن ينتهى منها أو ينهيها والسلام ، أو من غير سلام !

□ □ □

بسبب العمليات العسكرية فى اثيوبيا والصومال واريتريا وتشاد سوف يتضاعف عدد الجراد الذى يقضى على النباتات التى هى طعام الإنسان والحيوان. اى أن الجراد سوف يمسح الأرض تماما لكى تكون قبوراً مسطحة للذين لم تقتلهم القنابل والصواريخ!

وبذلك يقوم الجراد بتحقيق نوع من العدل العنيف ـ لأنه سوف يسوى بين «الظالم» الاثيوبى و«المظلوم» الصومالى فى الموت!

فقد حذرت منظمة الزراعة هذه البلاد المتحاربة من أن هناك تكاثرا فى الجراد تنبغى مقاومته بالمبيدات الحشرية أرضا وجواً. ولكن المتحاربين قد شغلتهم معارك الإنسان عن تحديات الحشرات التى سوف تقضى على الجميع. ولذلك تضاعف عند الجراد لأن أحداً لا يقاومه، ولأن الحرارة والرطوبة الشديدة تشجع على تكاثره.

وتدل الخرائط التى رسمتها سفن الفضاء على أن جيوش الجراد تتجه من الهند إلى باكستان مكتسحة حقول الارز. وأنها أيضاً تتجه من جنوب المغرب إلى تشاد.. ومنها إلى أثيوبيا والقرن الافريقى..

أما حركات الجراد فعلى شكل سحب سوداء قاتمة تضم ثلاثين مليون جرادة وتزن كلها خمسين ألف طن..

وقد بلغت مساحة أحد جيوش الجراد سنة ١٨٨٩ فوق البحر الأحمر حوالى ألفى كيلو متر مربع..

وقد رصدت سفن الفضاء سبعين جيشا من جيوش الجراد تتقدم فى اتجاهات مختلفة. ولكن أحداً لا يعرف بالضبط حدود هذا الزحف الرهيب فقد تتجاوز هذه المناطق التى رصدتها سفن الفضاء إلى شمالها أو جنوبها.. فالجراد ــ مثلاً ــ فى سنة ١٨٦٩ قد وصل من غرب أفريقيا إلى انجلترا مارا بالمحيط الأطلسى وبحر الشمال!

ويتوقع العلماء أن يبلغ زحف الجراد قمته فى شهر أغسطس القادم.

فهل هذا هو الجوع الذى سيؤدى إلى وقف القتال فى أثيوبيا والصومال وتشاد واليمن، بعد أن فشل الجوع إلى الدم والدمار من تحقيق السلام القائم على موت جميع المتحاربين!

● ● ●

في يوليو سنة ١٩٥٩ قابلت الدلاى لاما الأب الروحى للبوذية فى التبت. وكان بيته عند قمة جبال الهملايا. ذهبت إليه متظاهراً بأننى مريض أطلب منه الشفاء وأمتنان الشعب المصرى الكريم. وعالجنى ببركاته. وكانت البركات على شكل زكام أصابنى فترة طويلة. وكلفنى أن أنقل هذه البركات إلى الشعوب العربية قاطبة. ويؤسفنى أننى لم أتمكن من ذلك..

وكانت الصين قد طردت الدلاى لاما فلجأ إلى الهند. وأعلنت الصين أنها أطالت عمر الدلاى لاما. فقد كانت التقاليد تقضى بقتله عندما يبلغ الواحدة والعشرين.. وهو الآن قد تجاوز الأربعين. ووقع فى مصيدة السوفيت فاستدرجوه لزيارة معبد بوذى بالقرب من لننجراد؟! وسوف يسافر لأنه ما دام عدوا للصين فهو صديق لروسيا.

وسوف يذهب إلى روسيا على أنه خرافة حية..

وقد أعلن الدلاى لاما أنه سوف يحرر الصين (ألف مليون نسمة) بجيوشه القوية بالإيمان — ٩٤٢ من الكهنة. وأن الاتحاد السوفيتى سوف يساعده على ذلك؟!

وعلى الشعب الصينى أن يحترس من الآن. فقد يباغته الدلاى لاما فى أية لحظة بهجوم مفاجىء.. أو بغارة من بركاته الأكيدة المفعول. وقد عانيت أنا شخصياً من هذه البركات فاحمر لها وجهى وأنفى وعيناى.

ولما قرأت فى الصحف أخيراً أن وباء الانفلونزا قد انتشر فى الصين، وأن الابر الصينية لم تفلح فى القضاء عليه، أيقنت أن بركات الدلاى لاما قد حلت رغم أنف الادارة الصينية الجديدة ؟ !

* * *

مسكين ذلك الرجل الذى يدق بابك فى اوقات قريبة من الليل أو النهار، يطلب إليك أن تدفع ما استهلكته من الماء. قد يجيء فى وقت غير مناسب لك. ولكن هذا الوقت هو الوقت المناسب له هو، فعليه أن يجمع الفواتير. ألوف الفواتير.. فقد يكون تجميعها لنفسه، أو لغيره من الزملاء الذين قاموا بأجازة. والدافع الكبير وراء اصرار هذا المحصل هو أنه يتقاضى عمولة قدرها ثلاثة مليمات على كل فاتورة يحصلها بعد الـ ٨٠٠ فاتورة الأولى وهذه العمولة تصل فى الشهر الواحد إلى جنيهين وأحياناً تبلغ ثلاثين قرشاً!

وهو لذلك يصعد السلالم الطويلة وينزل مئات المرات. والبوابون فى العمارات الكبيرة يمنعونه من استخدام المصاعد؟!

ثم أن هذا المحصل يواجه الناس وحده بملابس ممزقة واحذية مهلهلة وفى حافظته عشرات الالوف من الجنيهات. وبلا حراسة.

جاءنى اسماعيل محمد مفتش مرفق مياه سيدى بشر. وقال: أنه ذهب إلى النقيب مسعد محمود حسان بنقطة سيدى بشر قسم المنتزه. وطلب إليه أن يحميه من تاجر خضروات كاد يفتك به. فعامله النقيب مسعد محمود حسان بمنتهى العنف وطلب إليه أن يخرج وإلا.. فذهب المفتش ومعه المحصل وطلب التحقيق فى ذلك. واتجه إلى اللواء على دارز مساعد مدير الأمن. فأجرى التحقيق بنفسه.. ولا نتيجة لهذا التحقيق ولا أثر.. والمشكلة أمام هذا المحصل والمفتش معا الآن: إلى من يتجه إذا هدده

أحد، أو اعتدى على أموال الدولة أحد، هل يذهب إلى نفس النقطة التى رفضت حمايته؟.. هل الشكوى سوف تجعل من هذه النقطة كلها خصماً له وعدواً؟.

أنها ليست مسألة مواطن. وإنما مواطن مضاف إليه الدولة. وهيبة القانون أو الذين ينفذون القانون.

إن فى استطاعة أى محصل أو مفتش لا ضمير له أن يكسب ألوفا فى أى وقت.. فمن السهل عليه جدا أن يفرط فى أموال الدولة.

ولكن إذا وجدنا مواطنا عنده ضمير، وهو لذلك حريص على أن يطبق القانون على الصغير والكبير فمن الواجب أن نحميه وأن نشد ازره، وأن لم يكن ذلك لاسباب «إنسانية»، فليكن لاسباب مالية يحملها ويتجول بين أناس يتلمظون ولا يريدون أن يدفعوا مليماً ثمنا للماء الذى شربوه!

■ ■ ■

السيدة جاكلين كيندى أوناسيس: صورة من صور التحدى.. أى أنها تتحدى كل القواعد المعروفة للمرأة المحظوظة. فالمرأة المحظوظة هى الجميلة جداً التى يتسابق عليها الناس.. أو المرأة الذكية جداً التى تخيف الناس ويرون فى الزواج منها إنتصاراً عليها.. أو المرأة الغنية التى تشترى أجمل الشباب بفلوسها.

ولكن السيدة جاكلين لا جميلة ولا هى ذكية، ثم أنها شحيحة جداً. ففلوسها تزيد ولا تنقص. ثم أنها نحس على كل من يقترب منها:

وهناك رجال كثيرون يريدون أن يتحدوا النحس بالزواج منها. قيل: المليونير السعودى عدنان خاشقجى.

وقيل اخرون من اصحاب الاموال فى العالم كله. وكل هؤلاء جميعاً لديهم حب استطلاع شديد: فهم يريدون ان يعرفوا من هى السيدة التى كانت تعمل مصورة صحفية ثم استولت على أغنى وأقوى شاب فى العالم: جون كيندى!

ولم يكد يمضى على وفاته وقت طويل حتى قررت أن تهرب من الصحفيين والسياسيين فى أمريكا إلى احدى جزر اليونان مع رجل مليونير هو أوناسيس..

وعندما كانت فى جزيرة اسكوربيون التى يملكها اوناسيس استطاع احد المصورين الايطاليين أن يصورها عارية تماما. وأن ينشر هذه الصور..

واستطاع صحفى ألمانى أن يحصل على نص عقد الزواج المبرم بينها وبين اوناسيس والذى يقول : لا يحق للزوج ان يدخل غرفتها قبل أن تكمل زينتها !

ومعنى ذلك أن العالم قد عرف صورتها عارية ، وعرف أنها بدون ماكياج لا يمكن أن يراها أحد..

إذن فالذى يغرى الناس بها شيء آخر: هو أن لها ماضيا .. أى أنها قطعة من التاريخ القديم : أنتيكة !

□ □ □

من حق أنور السادات أن يشعر بالاعتزاز بنفسه وبلده والعروبة لأنه استطاع ان يحقق الكثير، وأنه قادر غدا وبعد غد على أن يعطى لنا وبنا ومن اجلنا أضعاف الذى اعطاه.

ان ما صنعه انور السادات لمصر وللأمة العربية هو أنه رفع عن كاهلنا: العناء النفسى بسبب النكسة العسكرية التى ادت إلى نكبة نفسية، وخيبة املنا فى أى شىء..

وليست نكسة ٦٧ أو هزيمة يونيو بعيدة عنا. فبعدها لم يكن لدى أى انسان أمل فى أحد أو فى أى شىء. وفى ذلك الوقت تحولت مجالسنا إلى مآتم ومسيراتنا إلى جنازات. أما الفقيد فهو مصر واما المشيعون الذين يتغامزون ويتلامزون فهم الأمة العربية كلها!

وصدقت علينا عبارة قلتها واتمنى لو اننى لم اقلها: إذا انهزمنا فنحن مصريون، وإذا انتصرنا فنحن عرب!

وانتصرنا فى أكتوبر ١٩٧٣. وحدث تغيير طفيف جدا فى السلوك العربى العام.. فبعد أن كان من حق كل إنسان غير مصرى أن يضع ساقا على ساق وأن يريح احدى ساقيه بأن يمدها فى وجوهنا لاننا انهزمنا فى يونيو ٦٧، أصبح يضع ساقا إلى جوار ساق ثم ينهض ينحنى احتراما وتعظيما للوجه الذى يراه امامه فى المرآة.. فقد حدث بعد حرب اكتوبر أن عشقت الامة العربية نفسها وامجادها وعظمتها على التحدى وقدرتها على التحدى والتصدى للصهيونية العالمية..

وقبل ذلك استطاع أنور السادات أن يصفى مراكز القوى ــ وكان ذلك عملا فى غاية الجرأة .

وبعد ذلك أشار إلى جيش سوفيتى (١٧ ألف جندى) أن يخرجوا من مصر، وهو عمل لم يحدث فى التاريخ ، ولم يولد بعد من جرؤ عليه .. لأنه اخطر قرار اتخذه أنور السادات فى حياته !

وانتقل انور السادات من الحرب إلى السياسة إلى الدعوة إلى السلام ، فى ظل الاستعداد للقتال .

اننا ننظر إلى ما حققته مصر بأنور السادات ، بالأمان والاطمئنان والامل وعظيم الاحترام ، أما ما تبقى فى القلب من مشاعر فهى خليط من الاشفاق والاحتقار لمن اعلنوا حرب الكلام لا على اسرائيل ولكن على مصر التى نذرت نفسها للسلام مع الجميع وللجميع !

● ● ●

في المعركة الانتخابية في واشنطن لاختيار العمدة: سمعت العمدة الجديد والعمدة القديم ومن يريد أن يكتسح الاثنين ولاحظت أن التليفزيون قد اعطى للجميع مساحات زمنية متساوية ليقول كل منهم ما يشاء ويتهم من يشاء.

قيل للعمدة القديم: أنك لم تبن بيوتا ولا أصلحت مدارس ولا ضاعفت المواصلات والكهرباء التى تنقطع من حين إلى حين ولا حللت أزمة المساكن ولم تمش فى الشوارع ولم تزاحم الناس فى الاسواق.. أنت تعيش فى برج عاجى!

والعمدة زنجى وسوف يكون زنجيا إلى الابد، لأن ٨٠٪ من سكان العاصمة واشنطن من الزنوج.

ولقد رأيت بيوت الزنوج: جميلة وقصورا شاهقة وحدائق فخمة. ولهم عربات لا يجرؤ اى مواطن مصرى على أن يشتريها مهما كان وضعه فى سلم المكاسب والارباح التجارية الحرة فى مصر — فهى عربة طويلة عريضة ولها صوت نفاث وثمنها بعشرات الألوف من الدولارات وأكثر الزنوج يركبون الكاديلاك. ولذلك فقد زهد فيها البيض. لأن السيارات الكاديلاك ليست حلا للمواصلات، ولكنها حل لعقدة الرجل الأسود الذى يريد أن يكون فخما ضخما وأكبر من حجمه ليساوى الرجل الابيض تماما أو يكون كالرجل الابيض وزيادة!

أما رد العمدة فيصلح أن يكون ردا لمحافظ القاهرة الصديق سعد مأمون قال: والله ياخواتى أن مشكلة الاسكان والمياه والكهرباء والمواصلات ليست مشكلة العاصمة واشنطن. أنها مشكلة قومية.. مثل مشكلة احتلال اليهود لسيناء.. كما لا يستطيع أن يسأله اين تذهب اموال قناة السويس.. ولكن الذى يجب أن يوجه للمحافظ هو فقط ما يدخل فى اختصاصه.. ولذلك فأنا برىء من كل هذه التهم. ولذلك أدعوكم إلى انتخابى.

وانتخبوه ونجح!

معذور جداً كل وزير أعلام حاول أن يصلح الاذاعة والتليفزيون. من المؤكد أنهم جميعاً حسنو النية صادقوا العزم ابتداء من د. عبدالقادر حاتم والقانونى البارع د. جمال العطيفى وانتهاء بالصحفى الكبير عبدالمنعم الصاوى.

وما هو الاصلاح المطلوب؟

هذا هو أسهل سؤال لأصعب إجابة. فالاذاعة والتليفزيون هما عبارة عن ملايين صحف تصدر كل لحظة لتصل إلى مئات الملايين من القراء والمشاهدين وتدخل عليهم بيوتهم من الخليج إلى كل المحيطات. فالخطأ فيها فادح والصواب فيها على أوسع نطاق.

ومنذ أيام نشرت هيئة الاذاعة البريطانية شكواها، وهى أكبر هيئة اذاعية فى العالم وأعرقها وأبعدها أثراً فى الشرق الأوسط.. وكانت تشكو من العمالة الزائدة ومن التدخل الحكومى ومن نقص الفلوس.. أما الفلوس فلا تكفيها الاعلانات فى التلفزيون. ولا تكفيها المعونات. ولا توجد معونة حكومية أو غير حكومية ليست مشروطة. وتشكو من تدخل الدولة.. فليس من المعقول أن تكون هذه الهيئة أخطر من أسلحة الطائرات والدبابات والغواصات والصحف والبرلمان، ثم تتركها الدولة هكذا على هواها تحت أى اسم، ولكن ذلك الاسم هو اللفظ السرى السحرى: الحرية.. وشكواها الكبرى هى من زيادة الموظفين. وهى فى ذلك متساوية مع الاذاعة والتليفزيون فى مصر. فربع العدد الموجود يكفى جداً لتكون عندنا اذاعات ومحطات متنافسة..

ولن يكون اصلاح الاذاعة والتيفزيون فى مصر بأن يجىء وزير جديد. أو رئيس جديد.. ولكن لابد من تنظيم شامل له فلسفة. ونحن لسنا على عجل لاصلاح ذلك ولكن لابد أن يكون هناك علاج لكل العيوب الفنية والادارية والأخلاقية الموجودة فى هذا المبنى الذى لا ترابط بين أقسامه أو بين رؤسائه أو بين العاملين فيه.. والذى تهزه المنافسات الفنية التى تجىء إليه من أصغر الدول العربية، ولن يقوى على منافستها.. لأن هذه الدول الصغيرة تنافسنا بنجومنا وفنانينا وبأموال صعبة ـ أى بالعملات الصعبة البعيدة عن أنف الضرائب والجمارك!

□ □ □

جلسنا حول المرشح للحزب الوطنى، أنه زميل دراسة. وكان غارقا فى السياسة منذ المدرسة الثانوية. خطيب فصيح ـ كان ولايزال. وتناقشنا: ما الذى يمكن أن يقوله للناس: فكل شىء قد قيل. قال احدنا: يا أخى حدثهم عن مصر الآن وكيف كانت قبل ذلك.. وقل لهم ان الحكومة التى استطاعت أن تحقق للشعب كل ذلك، فى وسعها ان تقدم لهم اكثر..

قال آخر: بل الافضل ان تختار انت موضوعا محددا. وتحدث الناس عن الذى سوف تفعله أنت، ولو ساعدك الناس، فسوف يكون المشروع اكمل واعظم واسرع وانفع، ألست صاحب شركات. قل لهم عن احدى الشركات التى تديرها باشتراكية وتوزع ارباحها بالعدل..

قال ثالث: رأيى أن تحكى لهم قصة حياتك. كيف أنك بدأت من حيث يبدأ كل ابناء الطبقة الفقيرة الذين تعلموا معتمدين على الله وعلى انفسهم. وكيف انهم رغم كل المصادرات وكل الارهاب والسجون، استطاع ابوك وعمك وانت واخوك وأنت من بعدهم، أن تحقق ما تفخر به مصر.. قل لهم أنك إنسان عادى جداً، وان فى استطاعة كل إنسان أن يكون مثلك إذا عمل.. وقد انفتحت الفرص التى لاحد لها أمام كل الناس.

وذهبنا معه. ولم يكد يراه الناس حتى صفقوا له. لولا أن واحداً من

بين الجمهور قال صارخاً : مليونير.. لص .. سرقتم اموال الشعب .. وجئت تتحدث عن الاشتراكية والحرية ؟ !

وكأنه لاعب ماهر، بل هو لاعب ممتاز، اعطيت له الكرة ليسدد أول هدف .. والهدف الثانى وثالث ..

وترددت اسماء كثيرة كافحت معه ونجحت .. ودخلوا السجون ظلما ، وجردوا من اموالهم الحلال ، ولكنهم مع الحرية والامان ، بدأوا من جديد .. حتى كان مليونيرا ولكنه ليس لصا ، لا هو الآن ، ولا كان .. وصفق له الناس ، وأقسموا أن يختاروه ..!

● ● ●

شيء عجيب حقا أن تنفتح الابواب وغرف الطعام والقمار فى القاهرة للشاعر نزار قبانى الذى قرر أن يعيش فى مصر؟ أى فى البلد الذى انفرد بكراهيته وحقده واحتقاره فنظم فيها عشرين قصيدة ترددت فى اذاعات بيروت وبغداد ودمشق وطرابلس. وقد اتخذت هذه القصائد موضوعاً واحداً. خيبة امل الأمة العربية فى مصر وشعب مصر وجيش مصر وقيادة مصر فى الماضى والحاضر والمستقبل. أما الكلمات التى استخدمها فهى نابية فاجرة داعرة.

وقد فكرت احدى دور النشر الصغيرة فى القاهرة أن تعيد طبع هذه القصائد وتوزيعها مجاناً. ولكن القانون المصرى لا يسمح بهذه السفالة الشعرية!

وقبل أن يجيء الشاعر نزار قبانى إلى القاهرة نشرت له الصحف أن كل ما تبقى من لياليه المأجورة فى بيروت هو مبلغ ١٥٠ ألف جنيه — مع أن التهجم على شعب مصر وجيش مصر قد اكسبه الملايين. وبسرعة اهتدى الشاعر التاجر إلى نوع من «التضامن العربى» فأعلنت سيدة عراقية مقيمة بالقاهرة أنها قد عثرت له على الشقة المطلوبة ولكنها ليست على النيل وليست مزودة بقاعة طعام كبرى. ولكن سيدة كويتية مقيمة بالقاهرة قد اعلنت أنها وجدت الشقة وأنها سوف تدفع له ربع مليون جنيه! وسيدة لبنانية سوف تهديه بيتا صغيراً فى المغرب، وأنه يستطيع أن يستأنف رسالته النبيلة من هناك، فيشتم كل شعوب المشرق العربى الذى أعطاه الكثير جداً ليشتم مصر.

وفاتنا في مصر أن نعاقب الذين أهانوا مصر وشتموها وتجنوا عليها .. وفاتنا أن نقفل الأبواب وأن نفتح له النوافذ ليتفضل مشكوراً فيلقى بنفسه منها ــ وسوف نعد له جنازة حارة ــ فالجنازات والسير فيها والبكاء على الذين ماتوا : عادة فرعونية قديمة !

مادمنا نطلب للفلسطينيين حق العودة إلى وطنهم ، فاليهود يطلبون أيضا حق العودة إلى أوطانهم فى مصر والعراق والسودان وسوريا .. أما فى المغرب ففيها أكبر جالية يهودية : ثلاثون ألفاً .. ولذلك أعلنت بعض الدول العربية أنه لامانع من عودة اليهود إليها . وسوف تعاملهم هذه البلاد العربية كمواطنين من الدرجة الاولى . لأنه لا توجد درجات للمواطن فى بلادنا . فنحن جميعاً مواطنون من الدرجة الأولى . أو مواطنون على درجة سواء أمام القانون .. وتقدم كثير من اليهود إلى سفارتنا فى باريس يسألون عن شروط العودة . لاشروط . من يريد أن يعود إلى مصر فالباب يسع الجمل بما حمل .. ولكن بعض الصحف الاسرائيلية هاجمت هذا القرار الذى أعلنه الرئيس السادات بأنه لامانع من عودة اليهود المصريين .

قالت الصحف الاسرائيلية أن هناك خطة عربية خبيثة هدفها تشجيع اليهود العرب على العودة إلى بلادهم الاصلية . فإذا حدث ذلك فسوف تواجه اسرائيل أكبر كارثة هجرة فى تاريخها ــ هجرة منها وليست هجرة إليها ! لأن ٧٠ ٪ من المواطنين فى اسرائيل من اليهود الشرقيين والذين يتكون منهم ٨٠ ٪ من الجيش الذى حارب سنة ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ . فكل الجنود والضباط من اليهود الشرقيين بينما القيادات العسكرية والسياسية من اليهود الاوروبيين ، الروس والبولنديين والالمان .. فإذا أضفت إلى ذلك أن الحياة فى اسرائيل لم تعد محتملة وأن التمزق النفسى والسياسى والدينى قد بلغ قمته . وأن اليهود الشرقيين يشعرون أن العبء كله يقع عليهم . وأن اليهود الغربيين هم الذين يسيطرون على كل شىء . وهم سكان المدن .

أما سكان الصحارى والمستعمرات فهم اليهود الشرقيون، وإذا عرفنا أيضا أن اليهود خارج اسرائيل اسعد منهم حالاً وأكثر استقراراً وأماناً، أدركنا أن الرغبة فى الهجرة من اسرائيل إلى أى مكان هو أملهم القريب والبعيد.. ولذلك بدأت الصحف الصهيونية تحذر من هذه الخدعة التى أعلنها العرب وتقول أن الدعوة إلى عودة اليهود، ليست إلا دعوة إلى اضعاف اسرائيل عسكريا، وتعميق التفرقة العنصرية فى داخلها.. وأن هذه الدعوة هى حرب جديدة أعلنها العرب فى داخل اسرائيل!

حيرونا أن دعوناهم قالوا: خدعة؟

وأن رفضنا عودتهم قالوا: تعصب؟!

■ ■ ■

اعجبتنا عبارة المؤرخ هيرودوت عندما قال: أن مصر هبة النيل. فالنيل هو مصدر الحياة.. والطمى هو الارض. وعلى جانبى النيل وفى احضانه قامت الحضارة الفرعونية..

وبعد ذلك اتهمنا المؤرخ هيرودوت بأنه اراد أن نظل مرتبطين بالنيل، فلاحين. والاحتلال الانجليزى ارادنا كذلك ــ لا نهتم بالصناعة، ليأخذ الانجليز القطن ويصدروه لنا نسيجا واقمشة. ونظل عالة عليهم!

فاتجهنا إلى المدينة موظفين.. أفندية.. لا فلاحين!

وبعد أن خرج الانجليز والاجانب اتجهنا إلى الصناعات الثقيلة ثم الصناعة الخفيفة.. وهجمنا على الارض الزراعية نجردها من الخضرة انتقاما منها لانها هى التى كانت وصمة عار لنا.. فالاتراك كانوا يعيروننا بأننا فلاحون، والانجليز يشجعوننا بأن نظل افندية، إذن لابد أن نكون عمالاً وصنايعية ومهندسين.. فذبحنا الاشجار لتقام البيوت، ومحونا الارض المزروعه من أجل المصانع. وكذلك من أجل إقامة البيوت وفتح الشوارع.

والمدن سحبت الفلاحين ليعملوا فيها موظفين وعمالاً.. وسحبت الدول العربية الفلاحين لزراعة اراضيهم بأجور أعلى.. ولم يعد الفلاح حريصا على الأرض، حتى اصبحنا نستورد كل ما كنا نجده فى ارضنا، «والفلاح راح يشترى من المدينة ما كان يزرعه! اتلخبطت الارض تحتنا والمادة الخام فى ايدينا، وتسولنا ضرورات الحياة. ولا حياة لمصر اليوم وبعد غد إلا بالعودة إلى الارض الزراعية. إلا بالإنطلاق إلى الصحارى

المصرية فى كل اتجاه.. واذا كانت أوروبا قد عرفت احزاب الاشجار الخضراء، احتجاجاً على تلوث البيئة، فإننا فى مصر احوج من العالم كله إلى حزب الاشجار الخضراء والتربة الخضراء.. لأن لدينا عداء للحياة وتقديسا للموت.. وهذا واضح فى المدن الجديدة التى تقام فى الصحارى ننسى أن نجعل فيها حديقة.. أو مساحات كبيرة خضراء ــ لأننا نعلم أننا سوف نتجاهلها أو إذا تذكرناها قتلناها!

فالزراعة صناعة أيضاً. الأرض نفسها اكبر المصانع وانشطها واغرزها ثم أن زراعة الارض علم. وتصنيع ثمرات الأرض علم.. ولا أمن ولا أمان لنا فى مستقبلنا إلا عن طريق الأرض التى هى هبة النيل.. والنيل بعد أن تناقص من الطمى أخذ يجرف الشاطئين كأنه يسترد ما وهبنا فلسنا جديرين بهذه الهدية العظيمة ــ إلا إذا عدنا إلى الأرض أكثر احتراما لها، وعلما بها، وحرصا على مستقبلنا!

□ □ □

حتى البلاد التى بها غابات، تريد مزيداً من الأشجار.. أى: مزيداً من المساحات الخضراء، مزيداً من الحياة والازهار والثمار والطيور. فأعظم الانجازات الوطنية التى تقوم بها الجزائر الشقيقة هى أنها كلفت مئات الألوف من الشبان بزراعة اربعين مليون شجرة فوق الجبال ـ واطلقوا على ذلك اسم «الخدمة الوطنية»..

ومنذ أيام طالب الرئيس جعفر نميرى شعب السودان الشقيق بأن يواجه زحف الصحراء عليه، بأن يزحف على الصحراء ـ هى تهدده بالموت الاصفر، وهو يتحداها بالحياة الخضراء.. أى على الشعب السودانى أن يقوم بالتشجير فى مواجهة التصحير ـ أى تحويل الأرض المزروعة إلى صحراء.. وذلك بألا يزرعها أو بأن يترك الرمال والجفاف عليها فتكون صحراء..

أى من رأى الرئيس نميرى أن نواجه «المفقود الشجرى بزيادة فى الأشجار! وقد رفع شعاراً هو: شجرة لكل مواطن.. يزرعها فى بيته أو أمامه أو فى الطريق أو شواطىء الأنهار والمسطحات المائية..

وقد كتبت هنا كثيراً وفى مجلة «أكتوبر» أطالب بأن نزرع شجرة. كل واحد. ولم أتعب من تكرار ما حدث فى «كوم أوشيم» يوم ذهب الرئيس محمد نجيب فزرع شجرة ليفعل ملايين المصريين كذلك.. وماتت الشجرة وفعلنا كذلك ـ حين اقتلعنا الاشجار وتركناها تموت. وزحفنا بالتجريف والمبانى على الأرض المزروعة. وناديت بأن يطبق معنى الحديث

الشريف حتى إذا قامت القيامة يجب أن نزرع شجرة ــ أى حتى لو لم تكن هناك فائدة من زراعة الاشجار يجب أن نمضى فى ذلك أى يجب أن نستمر فى زرع الحياة فى وجه الموت..

بل وطالبت بأن يكون هناك حزب أخضر لحماية الحياة من تلوث الماء والهواء والطعام.. تماماً كالحزب الأخضر فى ألمانيا. وهو الذى يطالب حكومته بإبعاد المصانع، وتخفيف تلوث الهواء بعادم السيارات.. وابعاد المطارات بضوضائها وعادمها وسمومها عن المدن ومحاربة الأسلحة النووية.

فى استطاعتنا أن نزرع ما يعادل عددنا: ٤٨ مليون شجرة، ولكننا لا نريد!

● ● ●

كما أنه لا يحق لك من لعب «الكرة الشراب» أن يكون مدربا للأهلى أو الزمالك فكذلك كل من لعب فى الفريق القومى أن يكون حكما دوليا. فهناك شروط يجب أن تتوافر للاعب القومى والحكم الدولى من الممارسة الطويلة والنزاهة وحسن الخلق..

والإنسان حيوان سياسى ــ أى أنه بالغريزة يدبر حياته العائلية وعلاقاته الاجتماعية والسياسية. ولكن كونه سياسيا بالغريزة لايؤهله أن يكون صاحب نظرية. لأن النظرية لها مبادىء. وهذه المبادىء يجب أن تكون أملاً يؤدى إلى اصلاح الاوضاع الوطنية..

وكذلك ليس كل من حفظ جانبا من القرآن الكريم أو كل القرآن الكريم، قادراً على أن يكون داعية للإسلام أو صاحب مذهب فيه لأن القرآن الكريم والشريعة والفقه وأصول الدين والفلسفة القرآنية كلها علوم صعبة معقدة.. وقد يتوافر لأحد من الناس الكثير، ومع ذلك فشخصيته وسلوكه وصوته وعجزه عن الأقناع لا يجعله داعية للإسلام..

وإستخدام العنف فى الملعب وفى السياسة وفى الدين، ليس هو الأسلوب الأفضل فى الأقناع. فأنت لست فى حاجة إلى عصا لكى تضربنى لأقتنع وبأن ٢ + ٢ = ٤ ولا أنت فى حاجة إلى قنبلة لكى تقنعنى بأن الله خالق السماء والأرض وما بينهما. وإنما تقول لى ذلك وتتركنى فإن اقتنعت كان بها، وإلا فلكم دينكم ولى دين. وأن أستوضحتك أقنعتنى بما لديك من علم وتجربة وقدرة على التنوير والهداية.

وإن سار أناس طيبون بسطاء وراء الذين يزعمون لأنفسهم هذه القدرة الخارقة فذلك حال البسطاء والسذج فى كل زمان.. فما من واحد رفع صوته ويديه وأشعل النار فى عينيه، إلا وجد من يمشى وراءه.

ولكى واجبنا صحافة وتليفزيونا واذاعة وتربية وتعليما. أن نوضح للناس من هو هذا الذى نستمع إليه ونمشى وراءه ونطمئن إلى هدايته.. ويجب أن نصبر على الشباب الطيب، والله ولى الصابرين..!

أنا حريص على مشاهدة برنامج «المصارعة الحرة» ولكنى لا أجد متعة فى ذلك وإنما مشاعرى خليط : من الدهشة والقرف!

وفى كل مرة أحاول أن أفهم لماذا اهتم بهذا البرنامج وربما كان السبب هو عكس المتعة التى أجدها فى مشاهدة برامج أخرى فى عالم الحيوان مثلا الدرفيل وهو يقلد الإنسان ويتعلم من الإنسان بسهولة.. وكذلك حيوانات السيرك وهى تطيع الإنسان إذا ضربها وإذا ركبها كالفيل والاسد والنمر والقردة والكلاب والخيول.. فهذه الحيوانات تبين مدى سيطرة الإنسان على الحيوان، حتى جعلها أقرب فى تصرفاتها إلى الإنسان.

على عكس ذلك تماماً ما يفعله المصارعون الأحرار: فهم يتحركون كالفيلة ويقفزون كالقرود ويتصارعون كالنمور ثم يصرخون وينقضون كالضباع.. إن هؤلاء الناس أقرب إلى الحيوانات فهم إذن يمسخون الإنسان ويجعلونه حيوانا وربما كان ذلك هو سبب شعورى بالقرف عند مشاهدتهم.

وفى نفس الوقت يندهش الإنسان لهم وهم منقضون بهذا العنف، أو كيف يتحملون هذه الضربات الخشنة بالرجل واليد والرأس والحذاء، وكيف يتساقطون كالحجارة.. ولذلك يخيل إلينا أن هذا تمثيل أى أنهم يمثلون الضرب ويمثلون السقوط، كما يمثلون الحيوانات المفترسة.

ولأن هذا تمثيل، أو قريب من ذلك، فإننا نجد النقاد الريا ضيين يتابعون هذه الأعمال العنيفة بهدوء فالسيد فريد حسن المعلق الرياضى على

هذه المباريات : هادىء الصوت أو ضاحك النبرة ويقول أحياناً : هذه خنقة جميلة — أى أن أحد اللاعبين قد خنق زميله بمنتهى الجمال !

وإذا كان السيرك هو مدرسة تطويع الحيوان للإنسان و فأن المصارعة الحرة هى مدرسة « تخشين » الإنسان ليكون حيواناً أو قريباً من ذلك !

■ ■ ■

اعجبنى برنامج فى التيفزيون البريطانى هو من نوع المسابقات ذات المكافآت المالية الكبيرة، تدفعها الشركات بسبب الاعلانات التى تظهر بشكل ما فى البرنامج.

يظهر صاحب البرنامج فيقول مثلاً: موضوعنا ــ مثلا ــ على باشا مبارك الذى ولد فى برمبال الجديدة بمحافظة الدقهليـة سنة ١٨٢٤. ونحن نعرف أنه تعذب كثيراً فى كتاب القرية. لقد ضربه «سيدنا» فهرب. فذهب إلى رجل آخر كان يقسو عليه أيضا فهرب.. وذهب إلى رجل ثالث كان يضربه أيضا فهرب.. ثم ذهب إلى القاهرة وتعلم فى مدرسة الهندسة ليكون مهندساً. وسافر فى البعثة الخامسة التى أوفدها محمد على إلى فرنسا ــ البعثة الأولى كان بينها رفاعة الطهطاوى. أما على مبارك فقد كان فى «بعثة الانجال» ــ فقد أوفد محمد على باشا عدداً من أولاده فى هذه البعثة. من بينهم حفيدة اسماعيل ــ (الخديو اسماعيل). وأينما كان على باشا مبارك يذهب، فالحقد والدسيسة وراءه ــ هل كان ذكياً جداً؟ هل كان مخلصاً جداً؟ هل كان ريفياً ساذجاً جداً؟ فما من حاكم مصر إلا اذاقه الهوان حتى قرر أن يترك التعليم ويشتغل بالتجارة. واشتغل بزراعة الأرض.. وهو أول من فكر فى تأسيس شركة لبناء المساكن. ولكن أحداً لم يطاوعه. وهو أول مصرى طرد من عشر وظائف متوالية. وهو فى نفس الوقت، أول مصرى فى التاريخ يشغل خمس وزارات فى وقت واحد..

السؤال: من هى السيدة التى دق بابها فى الساعة الثالثة صباحاً فلما قالت له: من أنت؟ أجابها باللغة الفرنسية: أنا المحب المخلص والعاشق الولهان، والذى جاء يبوس الأرض تحت قدميك! ولما لم تفهم السيدة راح يضحك من نفسه ثم قال لها باللغة العربية: أنا الابن البار المخلص جئت اقبل قدميك قبل يديك..

وفتحت له الباب واغمي عليها من الفرح والبكاء.. فراحت تصرخ وتزغرد! الإجابة عن هذا السؤال: أنها والدته!

أما البرنامج فيشترك فيه على الشاشة مئات.. والمستمعون يشاركون بالتليفون.

وهى مناسبة لتعليم التاريخ الوطنى، وتعميق الثقافة العامة ــ ويمكن تنفيذه فى مصر!

□ □ □

ونحن نتعلم ركوب الدراجات والسيارات أيضاً يقال لنا : لا تنظر إلى يديك أو قدميك .. انظر إلى الامام !

أى أن النظر إلى تحت وفوق وإلى ما الذى تعمله لكى تتحرك الدراجات والسيارة سوف يؤدى إلى ارتباكك .. إلى اصطدامك ، فلا تتقدم بسلام !

ونحن فى حاجة إلى مثل هذه النصيحة الآن . ولا أبرىء نفسى ولا أحد . فما الذى نجده فى كل الصحف المصرية والعربية نحن لانتقدم فكلنا نهاجم كلنا . وكلنا نلعن الجميع . واليسار يرمى الطين على اليمين واليمين يعيد الوحل إلى اليسار والذين يدعون الله أن يحمى مصر من يسارها ويمينها ، يستخدمون الطوب والطين أيضاً .

والذين يحاولون أن يسدوا الباب الذى يأتى منه الريح ، يسدون الباب ببراميل من القطران . والذين يتغنون ويرقصون ينسون الباب والريح ويجعلون الليل أشد سواداً مما تحتوى عليه البراميل . والذين يعبون المشروبات الملونة التى تشعل الرأس والذين ينامون مخدرين .. والذين يهدمون والذين يهاجرون ، لاينسون فناجين البن السادة ـــ مضاعفة للمرارة أو حداداً على مصر !

فنحن لاننظر إلى أقدامنا فقط ، وإنما نحن ننظر وراءنا فى غضب ، وأمامنا فى يأس .. ومن الغضب على الماضى واليأس من المستقبل ، نشعل

مصابيح الغاز السام لاجيال بريئة لاذنب لها إلا أنها ولدت فى العشرين عاماً الماضية .. وإلا أنهم صدقوا ما سمعوا وما قرأوا ولا يزالون يقرأون .

ونلقى منهم احترام الأب والعم والخال والاستاذ والرئيس .

هل من علاج ؟

نعم .. أن ننظر وراءنا مرة وأمامنا مرتين .

هل من علاج آخر؟

نعم .. أن يكون اتفاقا معلنا بيننا جميعاً . فلسنا ابرياء مما حدث . فقد كنا شهوداً عليه . ولسنا أبرياء مما سوف يحدث ، فنحن شهود ومتفرجون .. والذى يسيل من أقلامنا ، ليس مداداً وإنما هى دماؤنا ودماء الآخرين !

● ● ●

في البلاد المتحضرة يسبح القانون في بحر من القيم الاخلاقية .. بل أنك لست في حاجة إلى قانون ليقول لك : إذا وقفت سيدة في الاتوبيس ، فاترك لها مقعدك . ولست في حاجة إلى قانون لكى تضع الورقة في جيبك بدلا من أن تلقى بها في الشارع ..

ثم ما هو ذلك القانون الذى يجعل مواطنا مصريا في أقصى الشمال من أمريكا يعلق خريطة ممزقة لمصر. عمر هذه الخريطة ثلاثون عاماً . سألناه : ما هذه ؟ فقال : إن هذه الورقة لها لون خاص وعطر خاص .. أنها رائحة مصر.

فسألناه : إن كانت لهذه الورقة دلالة خاصة عنده ..

وعرفنا أن الورقة ليست لها أية دلالة خاصة . ولكنه لا يملك إلا هذه الخريطة . واتفقنا على أن نبعث له خرائط وصوراً وكتباً عن مصر. وعلمنا أنه أقام لها معرضاً في قرية في شمال الاسكا تبعد عن أى مكان متحضر مئات الأميال . أنه صاحب الفضيلة د . عبدالرحمن أحمد الخضيرى . إن لم يكن من أبناء مصر الطيبين ، فهو واحد من أولياء الله الصالحين !

ثم ما اسم هذا القانون الذى يجعل مواطنا مسكينا يجد حقيبة بها عشرات الألوف من الجنيهات . لم يره أحد عندما التقطها . ولن يراه أحد إذا أخفاها في بيته وأودعها أحد البنوك وراح ينفق منها مدى الحياة . ثم أن هذا المواطن يلتقطها من الأرض ويلقى بها في قسم الشرطة ويمضى دون أن يترك اسمه . والقانون يعيطه جانبا من هذا المال . ولكنه يرفض !

رأيت أحد المشتغلين بسياسة مصر اطال لحيته مثل عرابى باشا. ثم اختصرها مثل تروتسكى أولينين أو هرتسل. ثم أشار عليه بعضهم أن يطلقها مثل حسن البنا ـ والرجل صريح من كراهية لكل هؤلاء.. ولكنه يريد أن يختار لنفسه صورة من الكذب والضحك على ذقون الناس. فما اسم هذا القانون الاخلاقى الذى يدعى أنه ينتمى له ؟!

هذه القصة المفيدة والتى لها معنى اليوم وكل يوم انقلها عن كتاب ممتع حقا لفضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى فى موضوع لا يخطر على بالك أنه من الموضوعات التى تشغل رجلا عالماً متفقاً فى أدب الدين قبل أن يكون أدب الدنيا . الكتاب أسمه «فى عالم الصيد» ..

ينقل الباقورى عن المؤرخ الكبير المقريزى أن سيدة اشترت جوال دقيق بألف دينار. واحتاجت إلى من ينقل لها الدقيق إلى البيت . ووجدت عدد من اللصوص يحملون دقيقها وينهبون الدقيق شيئاً فشيئاً . عملاً بالحكمة التى تقول : حاميها حراميها ..

ومن الدقيق الذى تبقى صنعت كعكة . أخذت الكعكة ووقفت على باب قصر الملك المستنصر تدعوا الله أن يوفق الملك الذى يباع فى عهده الرغيف بألف دينار!

وضاق الملك واستدعى الوالى وهدده بأنه أن لم يعالج مشكلة الدقيق والرغيف فسوف يأكل الناس كل شىء وسوف يهدمون الدولة على رأس الملك والوالى ..

وأهتدى الوالى إلى فكرة . فأخرج اللصوص والقتلة من السجون . وأتى بهم أمام تجار الغلال فى مصر. وأمسك السيف وقطع رقاب اللصوص واحداً واحداً وهو يقول : «سرقتم أموال الشعب .. سرقتم طعام الشعب . ولذلك فلا علاج لهذه الرقاب إلا بقطعها !

ورأى تجار الغلال مصير اللصوص. فاستعانوا بالوالى أن يكف عن قطع بقية الرقاب.

وخرج تجار الغلال، أى لصوصها أيضاً، وفتحوا مخازنهم وطرحوا الغلال فى الأسواق..

وكان الجوع قد دفع الناس إلى أن يأكلوا لحم الكلاب والقطط...

والشعوب كالأفاعى، تزحف على بطونها.. فإذا خلت بطونها، امتلأت أفواها بالمرارة وقلوبها بالحقد وأيديها بالسلاح تقتل بعضها.

ونحن لا نشكو من قلة الدقيق، وإنما شكوانا من كثرة اللصوص ــ فلنتعلم من التاريخ!

■ ■ ■

فات الهيئات العسكرية فى مصر أن تحتفل بمرور قرنين على ميلاد فيلسوف العسكرية فى كل العصور: كارل فون كلاوسفتس. هذا الجنرال الالمانى الروسى لم يشتهر بمعاركه الفاصلة أو انتصاراته الساحقة، وإنما بفلسفته العميقة فى فهم الحرب وأساليب الحرب وأسبابها وأهدافها، كما لم يفعل أحد.

وهو قد ولد فى مدينة بورج فى ألمانيا الشرقية. ثم دفن فى احدى مدن بولندا ونقله الألمان فى سنة ١٩٦٠ ليدفن فى المدينة التى ولد فيها. ومن الغريب أن العسكريين فى الشرق والغرب لم يعرفوا عظمة هذا الرجل. وإنما الذى اهتدى إلى عبقريته فيلسوف الشيوعية فريدريش انجلز. ولذلك فقد احتضنه الشيوعيون منذ وقت طويل. وقرأ الزعيم لينين ماكتبه كلاوسفتس «عن الحرب» عندما كان فى منفاه فى سويسرا سنة ١٩١٥. وأضاف لينين إلى كلاوسفتس الكثير من التعديلات.

وللفيلسوف الروسى كلمات خالدة لأنها صادقة ونافذة. ومن أهمها عبارته الشهيرة: إن الحرب هى استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى. أى أن الحرب هى السياسة والسياسة حرب. وأن الحرب هى الصراع الذى لا يحسمه إلا الدم. والسياسة هى الأساس. حتى الجيش سلاح سياسى لتحقيق السلام.

وعندما ذهب مستشار ألمانيا هيلموت شميت إلى الصين حدثوه عن

هيام ماوتسى تونج بكلاوسفتس . وقالوا له : لم يكن لماوتسى تونج علاج معروف للأرق إلا هذا الفيلسوف .

ولكن فيلسوف العسكرية كان فى حاجة إلى فيلسوف آخر، مات دون أن يهتدى إليه . فلم يفلح الرجل فى أن يفهم المرأة. تقدم إليها . أحبها طلب الزواج منها فرفضت وأدهشه ذلك. ثم أنطوى على نفسه . ووجد لها عذراً ولنفسه أيضا : فلم يتسع وقته ليقرر إن كان الحب هو الكراهية ولكن بوسائل أخرى !

□ □ □

لا اعرف بالضبط اسماء المجلات أو الكتب التى كنا نقرؤها ونحن أطفال. هل كانت هناك مجلة اسمها : سمير التلميذ..

ولكنى أذكر تماماً أن أول كتاب جلست أقرأه وأردد ما فيه من عبارات جميلة أو من شعر اخلاقى هو كتاب «ادب الدنيا والدين» ولا أظن أن احداً من الأطفال والشبان يعرفونه الآن ـــ أو يجد ضرورة لذلك. ولكنه من الكتب التى أحنيت رأسى فيها كثيراً. والذى حفظته منها لايزال كما هو فى رأسى: مئات الابيات وعشرات العبارات الحكيمة..

ولم يكن كتاباً مسليا. فليست فيه قصص ونوادر ولا ما يشغل الخيال ويطلق فيه النار فى كل الاتجاهات، فأذا بى أطير بأجنحة طيور ألف ليلة وأدير حواراً فى داخلى مثل حيوانات «كليلة ودمنة» وهانس اندرنسن والأخوين جريم، مما يعرفه التلامذه الصغار الآن!

ولما بدأت اختار لنفسى ما يعجبنى قرأت «روايات الجيب» التى كان يقدمها فى عبارة سهلة الاستاذ عمر عبد العزيز أمين ومعها أيضاً روائع الأدب العالمى.. وقرأت بعد ذلك «جولات» الأستاذين ثابت.. وعرفت بعد ذلك قصص الكيلانى..

ولما ذهبت إلى معرض كتب الأطفال وجدت عوالم أخرى لم أكن أعرفها..

فالطفل يجد كل ما يريد وفى كل شىء.. كتبا صغيرة انيقة الشكل جميلة الصفحات سهلة العبارة.. فى العربية والانجليزية. ويجد لعبا من

الورق ومن المعدن .. ويجد لعبا كهربية وأخرى الكترونية ومعها كتب .. أنه لايجد غرابة فى كل ذلك . فقد رآه على شاشة التليفزيون ..

وأنا لم أر السينما إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة ، ومع الاستقلال فى الحياة والرأى اقتنيت أول راديو فى حياتى .. أما طفل اليوم فمعلوماته أكثر وخياله أوسع ، ولكن اعتماده على الآخرين أكبر وعلى نفسه أقل .. وهو مشاهد من الدرجة الأولى وقارىء من الدرجة الثانية ــ فالكتب ليست شاشات تليفزيونية وطفل اليوم كثير الكلام ، لأنه لا يقرأ فالقراءة هى حسن الاستماع لما يكتبه الآخرون !

● ● ●

أجد من الضرورى أن أتابع أحياناً برامج الأطفال. فأنا أريد أن أعرف ما الذى يقال لهم. ولا أظن أننى أحن إلى الطفولة، فقد كانت طفولتى حزينة بائسة. كطفولة كل ابناء الريف.

فقد كنا نتسابق فى ركوب عصا، على أنها حصان.. وكنا نتسابق فى أن نأكل بصلاً أكثر من الآخرين، فنأكل ونبكى ونمرض.. وكان بعضنا يقوم بوضع التراب بالقوة فى عيون الاطفال وكان أقاربنا يرون فى ذلك «بشرة خير» فسوف نكون اطباء للعيون..

أين هذا من لعب الأطفال اليوم؟ من اللعب الموسيقية والالكترونية والأتارى وبرامج التليفزيون والحفلات المدرسية والاغانى والرقص والكتب الانيقة والكتب الموسيقية والكتب المجسمة..

رأيت برنامج السيدة صفاء قطب. وادهشنى اننى لم اسمع كلمة البعبع ولا العفريت ولا أمنا الغولة ولا أبو رجل مسلوخة.. إلى آخر الاشباح والخزعبلات التى ملأت حياتنا وسودتها وأغرقتها فى الطين!

ومنذ أيام وجدت طفلاً صغيراً فى مكتبى. جلس على الكرسى وجعل يكتب فحاولت أن أخرجه بالقوة فلم أفلح.. فأطفأت النور. فظل جالساً. فأغاظنى أنه لا يخاف. ولو حدث ذلك لى ولجيلى، لملأنا الدنيا صراخاً.. ولكنى وجدته يتسلل فى الظلام ويحاول أن يدير التليفزيون مع أنه لم يبلغ الثالثة من عمره!

وسارعنا إليه نصحح محاولاته فى ادارة التليفزيون ــأى أننا لم ندع فرصة تفوت دون أن نعلمه شيئاً جديداً!

وإذا كان الاصلاح ضرورياً، فالتربية والتعليم هى البداية. والطفل هو المستقبل. فلنعلمه كيف يفكر بيديه. ويتخيل ويبدع صوراً وقصصاً. وأن ننتقل معه بشجاعة من لعبة إلى لعبة ومن قصة إلى قصة.. ومن معنى نفسى إلى معنى اجتماعى. وأن ننقل هذه التربية المثيرة من التليفزيون إلى البيت ومن البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى الشارع..

مع بداية التليفزيون تحولت جميع المسارح فى القاهرة إلى استديوهات تعمل لحساب التليفزيون. وقد كنت عضواً فى لجنة قراءة النصوص المسرحية، ولجان التحكيم المسرحى. وأذكر أنى فى احدى المرات جلست وحدى اراقب مسرحية «جلفدان هانم» من تأليف المرحوم الأديب والشاعر على أحمد باكثير وبطولة محمد عوض الذى كان تلميذى فى قسم الفلسفة بالجامعة. فلم يتمكن بقية أعضاء اللجنة من الحضور. وكان من حقى أن اعترض على العبارات الخارجة والمشاهد النابية فتتغير هذه المشاهد أو يحذفونها فوراً.

ولم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت، أن يعيدها الممثلون فى غياب الرقابة. وفى أوائل الستينات نشطت كل المسارح الكوميدية الحديثة والعالمية ومسرحيات العبث أو اللامعقول. أنا شخصياً ألفت أربع مسرحيات وترجمت للمسرح والتليفزيون سبع مسرحيات والفضل يرجع إلى حماس د. عبدالقادر حاتم والأستاذ سيد بدير والمرحوم حسن حلمى مدير التليفزيون فى ذلك الوقت.

ولا تكاد المسرحية تظهر للجمهور حتى تنقل بعد أيام إلى التليفزيون وظهرت كل المواهب الشابة على المسرح وفى التأليف المسرحى.

لقد كان عندنا عطش وجوع إلى الفن المسرحى. وأحسسنا فى ذلك الوقت أننا نعوض الذى فاتنا. وأننا مثل كل العواصم الأوروبية عندنا المسارح التقليدية وعندنا المسارح التجريبية. فكل المسرحيات المعروضة فى

باريس ولندن قد ظهرت على المسارح المصرية مثل مسرحيات «العبث» أو اللامعقول للكاتب الفرنسي يونسكو والكاتب الايراندى بيكيت وغيرهما. وظهرت لتوفيق الحكيم مسرحيات العبث التى استنكرها طه حسين فور ظهورها ووجد فيها نوعاً من الهذيان ونوعاً من انعدام المنطق، وظهور اعراض المرض والشيخوخة على الحضارة الغربية. ولكنها انتشرت وظهرت محاولات لشبان يقلدون الحكيم والمؤلفين الأوربيين..

بمنتهى الصراحة: اختفى الجد وانتشر الهزل والهزل انتشر بجهوده الذاتية، وضعف الجهود الرسمية!

■ ■ ■

رأيت على شاشة التليفزيون شرحاً لعبور قواتنا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وقام بالشرح عدد من الخبراء العسكريين وقد بهرت واعجبنى واقنعنى بأن الذى قامت به قواتنا عمل عظيم .. والذى اعجبنى هو أن شرح العبور كان علميا بسيطاً : بالرسم والصورة والكلمة الهادئة ولذلك أرى أن يعم ذلك فى دور السينما ، وأن يوزع على المدارس مطبوعاً مكتوباً . فانتصارات أكتوبر هى أعظم إنجازات مصر العسكرية كما أن مبادرة السلام هى أروع خطوات السلام ، وقمة كامب دافيد هى أكبر إنجازات السلام ، وأن ما سوف نتفق عليه مع أمريكا واسرائيل هو « النمط » الذى سوف يتحقق به السلام الحقيقى فى الشرق الاوسط ..

ونحن قد ظلمنا أنفسنا كثيراً ولا نزال ، فلو أننا أستعرضنا الكتب والدراسات والندوات والافلام عن حرب أكتوبر فأننا نجدها قليلة ، والكثير من هذا القليل لاقيمة له . مع أن التجربة هائلة وأثارها بعيدة . ولكن اسرائيل بسرعة أصدرت كتباً ومحاكمات وتقارير ونشرات وندوات وأكاذيب ومبالغات حولت هزيمتها فى أكتوبر إلى نصر عظيم ــ هى التى تقول ذلك !

ولكن بسرعة انتشرت هذه الكتب بعشرات اللغات بينما دراساتنا أكثرها صحفى ، أى سطحى .

ولكن يبدو أن هناك لعنة « عربية تصيب كل شىء عربى .. فالعرب مختلفون وممزقون وأكثر ضراوة على أنفسهم من اسرائيل ، فبدلاً من أن نقرر

حقيقة واضحة وهى أننا جميعاً شاركنا بما نستطيع، فأننا نهزم أنفسنا دون أن نقيم شيئاً على انقاض معاركنا الكلامية.. فبينما عدونا يتفرج على خيبتنا، ويبنى عليها صروحاً من المجد والتخويف والارهاب.. حتى إذا ما ظهرت بادرة السلام، لم نستفـد منها.. وإذا ما خطونا نحو السلام فزعنا من ذلك، وفضلنا أن نلعن الظلام بدلاً من أن نشعل شمعة.. وأن نبكى على ويلات الحرب، بدلاً من أن نتطلع بالامل والعمل إلى تباشير السلام!

□ □ □

في ايران بدأو يقتلون اليهود في الشوارع وفي المستشفيات. ويهدمون معابدهم ويحرقونها وغداً يحرقونهم. واليهود في ايران، كما هم في كل مكان، يمثلون الرأسمالية المستقلة مصاصة الدماء. ويمثلون السمسرة العالية بين القادرين من أصحاب السلطة وأصحاب الفلوس. وهم في إيران يمثلون الاحتكارات الكبرى لصناعة وتجارة السجاد العجمي والذهب والماس والبنوك، وكان اليهود قد استقروا في ايران شعباً يضم سبعين ألفاً، وديناً ضمن الاديان المعترف بها: الاسلام والمسيحية واليهودية والبهائية. ولهم عضو في البرلمان.

ومن مفاخر إيران أن الملك قورش هو الذي أعطى لليهود الحق في الحياة الكريمة في فارس القديمة واعادها إلى القدس وسمح لهم أيضاً ببناء الهيكل الذي هدمه ختنصر البابلي.

ولهذا السبب فإن إيران عندما احتفلت منذ سنوات بقورش العظيم ومبادئه الإنسانية الرفيعة، قامت كل أجهزة الدعاية اليهودية بتمجيد ذلك الامبراطورالعظيم رمز التسامح الديني..

ولكن تاريخ العذاب اليهودي والاضطهاد يبدأ هكذا: بارتفاع المد الديني في منطقة من المناطق، فإذا ارتفع المد الديني أحست الاقليات أنها المقصودة. فتتعصب الاقليات وتتماسك. وهذا التماسك يؤدي إلى التآمر من جانب الاقليات والاتصال بأعداء الاغلبية وهذا يثير منصب الاغلبية أو تقع أزمات اقتصادية تؤدي إلى الثورة على الأغنياء وعلى سماسرة الأغنياء اليهود..

واليوم يقف العالم كله وراء السلام. أى ضد حكومة اسرائيل وضد رئيسها بيجين بصفة خاصة. فقد ادعى أنه يريد السلام حتى فاز بالجائزة التى أعطيت له بقشيشاً. ثم عاد ينكر أن هناك كلمة اسمها السلام.

وهذه هى الشرارة الابدية لاشعال النار التى تأكل أمثال بيجين وتذيب دموع اليهود: بكاء عليه من جديد وإلى غير نهاية!

وإذا كان لابد أن نختار لبيجين اسماً جديداً يناسب أحداث العصر فليكن اسمه «شرارة العداء للسامية» فى الربع الأخير من القرن العشرين!

● ● ●

سبحان الذى يغير ولا يتغير. لقد اعترض أساتذة وطلبة جامعة كولومبيا على قبول د. هنرى كيسنجر عضوا فى هيئة التدريس!

وكيسنجر كان يملأ العين والأذن ويهز القلب ويوجعه أيضاً .. ويرى فيه الامريكان صورة التسامح فهو اليهودى الذى هاجر إلى بلادهم وأصبح الرجل الثانى فى أمريكا والمهندس الأول للأمن القومى والعلاقات الدولية. وهو الذى أخترع الوفاق أو لف الورود حول رأس نيكسون وبريجنيف .. ونيكسون وماوتس تونج .. وهو الذى أنهى حرب فيتنام وفك الأشتباك فى الشرق الأوسط ..

وهو الذئب الذى يفتك بقلوب العذارى.

وألمانيا ترى أنه ألمانى، أولاً وأخيراً وأنه واحد من الألمان النابهين الذين يعيشون فى أمريكا .. والذين أطلقوا صواريخها وأقمارها الصناعية.

واليهود يرون أنه واحد من هؤلاء الذين بشرت بهم التوراة .. أحد أمراء اليهود الذى ترك بلاده وسافر بعيداً ليقود الجميع!

ولكن علماء كولومبيا اختلفوا حول كل ذلك. فالطلبة والأساتذة تظاهروا يطالبون برفضِه. لأن سلوكه فى حرب فيتنام وفى مذابح شيلى وفى فضيحة ووترجيت كان لا أخلاقياً. وإن هذه الصفات كافية لرفضه من أية جامعة ..

وقال أساتذة وطلبة آخرون: أن الجامعة إذا رفضت قبول كيسنجر فهى قد حكمت على نفسها، ولم تحكم عليه. فمعنى ذلك أنها لا تعرف التسامح،

ولا تقبل وجهات النظر المختلفة فى السياسة أو فى إدارة الحروب .. فالجامعة مكان لوجهات النظر المعددة فهل يقبل د . كيسنجر أن يختلف عليه الناس بهذه الصورة الحادة ؟

هل يصبح أستاذاً جامعياً رغم أنف الكثيرين من الأساتذة والطلبة ؟

أعتقد أنه سوف يقبل ذلك ، لأنه أعتاد على المظاهرات أمامه ووراءه ترميه بالطوب وبالورود .. ثم ينجح فى النهاية . ويكون نجاحه صاروخاً شديد الدوى كثيف الدخان شاهق الارتفاع .. وإلا كان إنساناً تافهاً . والناس لايتفقون إلا على حقيقتين : أن الموت حق ، وأن قوانين الضرائب باطلة !

لقد أضفنا لقائمة المخاوف الوطنية شيئاً جديداً: المخدرات.

فالناس يتحدثون ويبالغون فى هذا الذى أصاب شباب مصر أما الأطفال فيقلدون الكبار. ولا يعرفون فداحة هذه اللعبة الخطرة التى سوف تظهر نتائجها المرضية والأخلاقية بعد وقت قصير.. أما الشباب فطبيعى أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك كثيراً.. فعدد كبير يدمن الجنس والأفيون ويشم الهيروين والكوكايين..

ويفزع الناس لما يقال من أن أطفال المدارس يلعبون بالنار.. دون أن يلفتهم أحد إلى بشاعة هذا الذى يتعاطون. ويقال أيضاً أن عدداً من الشباب يسافرون إلى الريف ليجدوا من يحقنهم بالمورفين ــ فبعضهم لا يجرؤ على ذلك فى القاهرة.

وسمعت أيضاً عن الذين تخصصوا فى صنع أقراص الهلوسة. وبعضهم من طلبة الكليات العملية. أما الأسعار فهى فادحة. ولكى يحصل الشبان على تكاليف ذلك فهم يسرقون ويخطفون وغداً سوف يقتلون. وليس أمامهم إلا المضى فى هذا الطريق أو التوبة بالأنضمام إلى الجماعات المتدينة ففيها يقلع عن هذا الادمان، بادمان شىء آخر ويبقى سخطه على الناس أشد، ورغبته فى الأنتقام أعنف.

ويقال عن الفنانين، رجالاً ونساء، أنهم يشمون الهيروين والكوكايين. وان «الشمة» الواحدة تساوى مائة جنيه ويقال أكثر. وبعض الفنانين يستخدم أنبوبة من الذهب.

وأنا على يقين من أن بعض الفنانين وغيرهم من الأغنياء يفعلون ذلك. ولكن صناعة الثرثرة والاثارة تضيف إلى هذه المعلومات الصحيحة الكثير من الخيال والطرائف غير المعقولة.

وأرى ان الحالة خطيرة جداً.. وانها ليست مهمة أجهزة الأمن وحدها.. وإنما كل أجهزة الدولة ووسائل الأعلام يجب أن تحذر من فداحة كل ذلك.. فهذا مرض يهدد حيوية مصر ويبدد الكثير من الطاقة والمال ويصيبها بالتسوس والأنهيار على نفسها!

■ ■ ■

أننى أدعو إلى الأمتناع عن التدخين. لأنه ضار. وليس هذا أكتشافاً أهتديت إليه وحدى، وإنما هى حقيقة يعرفها كل الذين يدخنون، ولا يجدون هذه الدعوة المخلصة قادرة على إقناعهم.

ولكنى أقلعت عن ذلك، كلاماً أو كتابة، لأن الناس عادة لا يحبون الذين ينصحونهم. ففى النصيحة نوع من التعالى على الناس. ومعناه: أنتم لا تفهمون وأنا أفهم. أنتم ضعاف الأرادة وأنا قوى. وفى هذه النصيحة نوع من الكذب على النفس. لأن معناها: أننى حريص على صحتكم، حرصى على صحتى أيضاً. والحقيقة أننى أخاف من تدخينهم فى وجودى. ففى وجودهم ضرر من الممكن أن يصيبنى..

وعدلت عن النصيحة، لأسباب أخرى. وهى أن الهواء العادى، أى الخالى من دخان السجائر، مسموم. ففيه ما هو أخطر من النيكوتين ومن ذرات السجائر ـ ذرات الورق المحروق. والتحليل الكيميائى للهواء العادى به كل أنواع الأبخرة والغازات السامة وذرات المعادن المستخدمة فى عمليات الأحتراق..

وكل شوارع العواصم الكبرى مسمومة تماماً بارتفاع مترين على الأقل. ولذلك فالسير فى شوارع المدن ضار وقاتل.. وإذا كان الناس لا يزالون أحياء، فليس ذلك بسبب أختفاء أسباب الأصابة بكل أمراض الصدر والقلب، وإنما بسبب «عبقرية» الجسم الانسانى.. فهى التى جعلته قادراً على التكيف مع السم، وقادراً على المقاومة وابتلاع وأمتصاص كل هذه المواد الضارة وأختزانها إلى فرصة أخرى.. تجىء فى الأربعين أو الستين.

وليس صحيحاً أن كل المصابين بالسرطان من المدخنين ولا من مدمنى الخمور ولا أكلة اللحم المشوى على الفحم، ولا الذين يعملون فى رصف الشوارع وأستنشاق الزفت ولا المشتغلين بأستخدام الأشعة فى علاج السرطان..

ونحن فى حياتنا العادية يغلب علينا أسلوب الأب والأم. ومن عادة الأبوين النصح الشديد والتوجيه العنيف. وهى أيضاً من عادات أكثر الكتاب ـــ فمعذرة!

□ □ □

المصريون الذين كانوا يطالبون بأن نترك الحروف العربية، وان نكتب بالحروف اللاتينية. قد ماتوا قبل أن يعرفوا نتيجة ذلك فى تركيا فقد قرر كمال اتاتورك الغاء الخلافة الإسلامية من ستين عاماً، والغاء الحروف العربية أيضاً. والأتراك اليوم يكتبون بالحروف اللاتينية واستعانوا على نطق الكلمات بالشكل الألمانى والسلافى للحروف المتحركة وهم يرون فى ذلك ضبطاً وربطاً للنطق التركى الصعب، كانوا قد أفتقدوه فى الحروف العربية.

وقد أدى أستخدام الحروف اللاتينية، إلى ان الشعب التركى فيما عدا العواجيز والشيوخ، أصبح غير قادر على أن يقرأ كل تاريخه القديم فى الكتب وفى النقوش على مساجده وقصوره.

فقد أنقطعوا تماماً عن ماضيهم وان كانوا فى نفس الوقت قد وجهوا جهودهم الثقافية إلى ترجمة تراثهم إلى الحروف الجديدة، ثم ترجمة الفكر الغربى أيضاً واليوم أقروا بعجزهم تماماً عن نقل تراثهم فى لوريات الحروف اللاتينية ولذلك هناك اتجاه إلى أعادة تعلم الكتابة العربية.

ولكن أحداً لا يجرؤ على الجهر بذلك خوفاً من أن يؤدى إلى الأنحراف بالآثار العميقة لهذا القرار الخطير الذى أتخذه أتاتورك ـــ وهو الزعيم المقدس الذى لا يمكن نقده أو مراجعة تماثيلة فى كل مدينة أو قرية.

فقد قفز أتاتورك ببلاده الأسيوية الأوروبية الإسلامية، إلى الغرب

أبتداء من الحروف اللاتينية ومروراً بالدولة العلمانية رغم أن ٩٩٪ من سكانها مسلمون .

• والإسلام فى تركيا معناه ان المسلم هو الذى ليس يونانياً ولذلك فهناك مسلمون لا يؤدون شعائر الدين وهناك مسلمون يؤمنون حقاً وصدقاً ولكنهم لا يجدون الكتب الكافية التى تحدثهم عن ذلك، أو التشجيع من العالم الإسلامى .

أن مفكرينا القدامى الذين كانوا يتلهفون على الافلات من الحروف العربية ، أنقذهم موتهم من هذه الكارثة التى كانت ستصيب مصر والعالم العربى والإسلامى !

● ● ●

وبعد ساعة من مناقشة حادة، أحسست أنه أقفل باب عقله فى وجهى! مع أننا كنا نتناقش فى قصة يومية فى كل بيت وفى كل وقت: من أين نبدأ اصلاح حالنا فى مصر.

والبداية أن نعرف ما هو هذا الحال الذى لا بد من اصلاحه: البيت .. الشارع .. المدرسة.

وأتفقنا على انها كلها فى حاجة إلى اصلاح. وان الأصلاح يبدأ منا وبنا فلا يمكن تطبيق شىء دون ان يكون هناك أشخاص يفعلون ذلك. ولا يمكن أن ينجح هؤلاء الأشخاص دون أقتناع. ولا يكفى أن يكون الأقتناع نظرياً لتحقيق ما نريد. فلا بد أن نؤمن بقدرتنا جميعاً على تنفيذ ما نراه اصلاحاً لحالنا. وأقتناع بعض الأفراد لا يكفى. وإنما يجب أن يكون مقرراً هنا علينا ــ أى نفرضه جميعاً على أنفسنا وأن نبدأ فوراً الآن. باتخاذ أى قرار.. مثلاً: فتح حنفية الماء ثلاث ساعات كل يوم وكل انسان متروك لضميره.. أو جمع الزبالة ونقلها إلى مكان بعيد عن البيت أو خارج المدينة لمن يستطيع ذلك.. أو الا يكون الراديو أو التليفزيون مسموعاً لدى الآخرين.. أو نأكل مرة فى الأسبوع.. أو ليكن من كل أسرة واحد يصيد السمك من النيل فى يوم الأجازة..

وكان من رأينا معاً ان الشعوب أطفال يجب أكراهها بالضرب على تناول الدواء. فالعودة إلى الكرباج ضرورية.. أما فتح السجون من أجل سلامة ورفاهية هذا الشعب الكثير الفقير فليس من رأيى!

وكان وزنه كبيراً ، ومسرفاً فى التدخين . وقلت له : ما رأيك لو بدأت بالصيام يومين فى الأسبوع طوال هذا العام وأن تكف عن الشاى والقهوة والسيجارة حتى ينقص وزنك ..

أى طلبت إليه أن يبدأ بنفسه ! لما قلتها أنطفأت كل الأنوار فى عينيه ، وكذلك الرغبة فى الكلام !

* * *

الله سبحانه وتعالى وحده الذى يعرف أين تذهب هذه الأموال التى يلقى بها المصريون فى صناديق النذور..

ذهبت مع أصدقاء إلى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، كان الوقت ظهراً، والمسجد أمتلأ. وفى جانب من المسجد صلينا. ثم أتجهنا إلى حيث الضريح. ووقفنا وقرأنا الفاتحة. وتزاحمنا. ورحنا ندور حول الضريح الذى تلألأ بالأنوار والمصابيح، والعطور والبخور يجىء من كل أتجاه. ووجدت صديقى قد فتح حقيبته. وأخرج منها عدداً من المظاريف. وراح يلقى بها الواحد وراء الآخر فى صندوق النذور.. عشرة.. عشرون ولا بد أنها تضم مئات الجنيهات. سألته. وسمعت الذى توقعته. فبعض أقاربه نذروا لله أن نجح فلان دفعوا للسيدة زينب كذا، وان شفى فلان وضعوا فى صندوقها كذا..

ومن عشرين عاماً قامت احدى المؤسسات العلمية بدراسة للخطابات التى يبعث بها المواطنون إلى الله فى صندوق بريد سيدنا الحسين وسيدتنا زينب رضى الله عنهما.. وكلها خطابات تتحدث عن متاعبهم النفسية والمادية والأجتماعية.. وعجزهم عن حلها.. فلا يبقى الا أن يدقوا أبواب السماوات..

وقد رأيت «حائط المبكى» بالقدس وكيف يتزاحم عليه اليهود يضعون أوراقاً بين الصخور.. أنها شكاواهم إلى الله..

ورأيت فى الطريق إلى «غار حراء» بمكة المكرمة اناساً يربطون فروع الشجر بقطع من القماش.. ورأيت من يعلق خطابات إلى الله..

وبعض المتشددين يرون ذلك حراماً لأنه لم يرد فى حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاء فى القرآن شيء من ذلك.. ولكنى أرى ذلك حلالاً، فهم اناس طيبون يستريحون نفسياً إذا فعلوا ذلك.. فليفعلوا..

ولا أحد ينسى ما قاله شاعرنا البائس حافظ إبراهيم عندما سمع بمئات الألوف من الجنيهات فى صناديق النذور، ولا شيء من ذلك فى يديه:

من لى بحظ النائمين بحفرة

قامت على أرجائها الصلوات

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم

وبألف ألف يرزق الأموات!

■ ■ ■

لا أذكر ان سيدات مجلسى الشعب والشورى قد دخلن أمتحاناً من أجل الدفاع عن حقوق المرأة ــ أو حتى الدفاع عنها وعن الأسرة والطفل. ولكن أذكر حادثة واحدة. كانت قد أحتضنتها مجلة «أكتوبر» منذ سنوات.. الحادثة أن سيدة من السويس كانت تسكن شقة. ثم فوجئت بأن عضواً فى مجلس الشعب قد أستولى عليها وطردها هى وأبنتها فى الشارع. سيدة من المهجرات. وكان لها دور نبيل أثناء أحتلال إسرائيل فى سنة ١٩٧٣.

فإذا كانت سيدات مجلسى الشعب والشورى يبحثن عن قضية نموذجية ليكون لهن رأى وموقف، فقد كانت هذه هى القضية. ولكن لم يكن لهن رأى ولا موقف. إذن لقد فاتت هذه الفرصة النادرة، التى تجعل لوجودهن فى مجلسى الشعب والشورى، مبرراً حقيقياً. وضاعت الفرصة وخرجت السيدة من الشقة إلى الرصيف. وبقيت سيدات المجلس فى مكانهن. ولكنهن سقطن فى أول أمتحان ــ يستوى فى ذلك من كان لها رأى، والتى سمعت بالقضية ولم تشأ أن يكون لها رأى. والتى كان لها رأى، لم تذهب إلى أبعد من ذلك..

والآن جاءت فرصة أخرى وهى «قانون الأحوال الشخصية» ــ أحوال المرأة وعلاقاتها بزوجها وبيتها وأولادها ومستقبل مصر. نريد أن نعرف ان كان هذا القانون قد أستخلص للمرأة حقوقاً من أنياب الأسد الذى هو

الزوج وفقهاء القانون والشريعة، وان كانت المرأة حريصة على أن تحتفظ بالذى كسبته.. أم أنه يستوى عندها أن تكسب وأن تخسر. فأن كانت سيدة واحدة تريد قضية وتريد تحدياً وتريد هدفاً لحياتها، فما هى الفرصة التى لا يصح أن تضيع بسبب شهر الصيام ولا بسبب الأجازة الصيفية والبرلمانية..

والا فالمرأة لم تكسب هذه المقاعد وإنما شغلتها فقط، فانشغلت المرأة عن قضايا ملايين النساء اللاتى يتطلعن إليهن فى أمل.

□ □ □

كلمة أعتذار واجبة أتقدم بها للسادة الكرام الذين يهنئون بالعيد وبمناسبات مختلفة. فأنا لا أعرف عناوينهم لأشكرهم على هذا الفضل النبيل.

وهى ظاهرة عجيبة حقاً. فهناك قراء يحرصون على تقديم التهنئة بحلول شهر رمضان وبالعيدين. وأنا أعرف أسماءهم. وقد قمت بعمل أحصائية وسجلت أسماءهم ومواعيد التهنئة التى تجىء قبل حلول المناسبة. فوجدت أن بعض هذه الأسماء لم تتغير من عشرات السنين. ويدهشنى أكثر أن تجد انساناً كريماً يلتفت إليك، ثم لا يتوقع منك رداً أو أمتناناً. أنه وجد لديه رغبة فى أن يهنئنى ففعل. وأحياناً تجد أنه قد بعث بأكثر من برقية. كأنه أحس ــ ولا أعرف كيف ــ ان برقيته الأولى لم تصل، فأرسل أخرى!

أو أن أحد القراء فى مصر أو فى العالم العربى، أحس أن كاتبه المفضل مريض أو حزين أو متشائم أو ليس فى «الفورمة» فيدعو له بالخير والصحة والعافية ويطلب من الله أن يخفف عنه.. ويكون هذا الأستشعار عن بعد، صحيحاً!

كنت أتلقى خطابات المعايدة والأستفسار عن الصحة من سجين خفيف الدم. وعرفت أنه يبعث لرئيس الدولة ببرقيات مماثلة. ولكنه أنقطع من خمسة أعوام. تذكرته. فسألت، قيل مات. وعرفت أن له أبناً يسير على طريق والده فى السرقة وفى تهنئة عدد كبير من الناس!

وكان لنا صديق فى الستينات سجين مدى الحياة. وكان له كارت مطبوع. عليه هذه العبارة: عبدالرحمن أحمد عبدالرحمن: موسيقى وحلوانى وساعاتى وترزى ومطرب وصحفى ويقول: اللهم زدنى علماً ونباهة وفطنة!

أى أن لديه كل هذه المواهب والقدرات ويطلب من الله المزيد ــ وهو بكل هذه المواصفات يهنىء بالعيد وبالصحة.

لقد خرج من السجن ومن الحياة منذ سنوات..

ان القارىء المجهول الذى يحبك ويهنئك، يجد متعة شخصية فى أن يؤكد لنفسه انه أنسان يفعل ما هو واجب، دون أن يلقى جزاء على ذلك.. فهو انسان مثالى لا يبغى شيئاً من وراء ذلك.. فشكراً متأخراً للقراء الكرام، أدام الله ما بيننا من محبة!

● ● ●

من عشرات السنين كانت أهم الحوادث اليومية أن أحداً ركب على الشمال ــ ركب الترام أو المترو أو الأتوبيس، ثم سقط على الأرض أو أصابته سيارة أخرى فسقط جريحاً أو ميتاً، وتضاءلت هذه الأحداث، إذا ما قورنت بالأحداث الأخرى.

ومن عشرين عاماً كان من أهم ما تكتبه الصحف يومياً ان احدى العاملات فى كافتيريا هيلتون قد عاكسها أحد الزبائن أو ان الصينية وقعت من يديها لأنها تعثرت.. وتنتهز الصحف فرصة هذا الحادث فتصف لنا ملامح وجهها وجسمها وتظل الصحف تتابعها حتى تختفى من هيلتون ــ لأنها تزوجت من أحد الزبائن!

وكثرت العاملات فى الفنادق والمطاعم ولم يعد حدوث شىء من ذلك يستحق الكتابة والآن تسهب فى وصف حوادث العنف: القتل والأغتصاب والأنتحار.. وكلها من معالم المدن الكبرى والتوتر العصبى، والضيق الأجتماعى، والعناء الأقتصادى، والشعور بالفشل العام، وكل ذلك مألوف فى المجتمعات الكبرى ولذلك لا تلقى هذا القدر الهائل من الحفاوة الاعلامية والدعاية المضادة كما أن أحداً لا يكتب عن عادم السيارات لأنه مادامت هناك سيارات كثيرة فلابد أن يكون لها أحتراق، وإذا كان أحد يشكو من هذا الأحتراق فلعل أحداً من العلماء يفكر فى طريقة للتخفيف من سموم هذه المواد الكيماوية ولكن سوف يبقى عادم السيارات والمصانع، ولم يعد يتحدث عن عادم السيارات وإنما

العالم كله مشغول بالتراب الذرى ومخلفات القنابل التى يفجرها الغرب والشرق تحت الأرض وتحت الماء. ويطلقونها فى سفن الفضاء تدور حول الأرض ــ حتى هذا قد أعتدنا على سماعه وقراءته.. كما أننا لم نعد نستنكر الحروب فى لبنان والعراق وفيتنام وايرلندا وأمريكا اللاتينية فقد أعتدنا على قراءة ورؤية ذلك.. ولا أتوقع أن تتوقف أحداث العنف فى القاهرة ولكن أتوقع فقط أن نعتاد على ذلك، لأن الأسباب التى تدفع إلى الجريمة موجودة وتزداد قوة وعمقاً.. سوف نعتاد على ذلك. كما أعتدنا على التدخين والحشيش والغش والتهريب... والسخط على أنفسنا وكل شىء!

كان من رأى موشى ديان الا يرفرف العلم الاسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة حتى لا يؤدى ذلك إلى أستفزاز المصريين. أى أن يبقى الأحتلال حقيقة دون أن يكون هناك علم يذكرنا بذلك..

وكان من رأى آخرين أن يبقى العلم الاسرائيلى فى مكانه لكى يعتاد المصريون على رؤيته عالياً فوق رءوسهم المنكسة حتى يعتادوا على هذا الهوان!

والمعنى فى الحالتين: أننا سوف نعتاد على وجود القوات الاسرائيلية على أرضنا وأننا لن نفعل أكثر من ذلك. أى أكثر من أستنكار الأحتلال بعلم وأستنكار العلم بغير أحتلال..

قد وقفت آمالهم عند هذا الحد ووقفنا بيأسنا على الضفة الغربية لقناة السويس والضفة الغربية لنهر الأردن أيضاً..

ثم كانت حرب ١٩٧٣ التى أستعادت القناة وعشرة كيلو مترات من الضفة الشرقية ولم تكن الأرض وحدها هى الهدف وإنما القدرة على العبور والقتال والصمود والنصر بعد ذلك. وقد نسينا الآن ما كان من أمر قواتنا المسلحة وروعة التخطيط والأداء ودقة التصويب والصمود وبراعة السادات السياسية.

أما إسرائيل والعالم كله فقد تحدثوا عن ذلك وتهاوت القيادات اليهودية فى العالم وكان ضحاياهم أكثر من القتلى.

وكانت أفدح خسائرهم : أكاذيبهم وغرورهم . فمن أكاذيبهم أنه لا أمل لنا في مصر.. ومن غرورهم أن أحداً لن يقهرهم على أى أرض. ولم تنسحب إسرائيل إلا من الأرض المصرية ثم أنها أضافت أرضاً جديدة وأحقاداً كثيرة .

أما نحن فقد فاتنا أن نسجل كيف كانت الحرب والنصر ونسينا كل ذلك .. ونحن فى مصر ننسى بسرعة.. ولا أحد منا يعرف كم هى بالمئات الكتب التى ظهرت عن الحرب بيننا وبين إسرائيل ــ أكثر هذه الكتب لم تصدر فى مصر ولا باللغة العربية ..

ولم تنته معاركنا بعد ــ لا مع إسرائيل ولا مع العرب .. فكما يولد السلام من الحرب. فمن السلام تتولد الحرب أيضاً ــ فاللهم احفظنا !

■ ■ ■

تعمير سيناء له معنى أكبر من ذلك: أننا قد أنتصرنا بالحرب والسلام فعادت لنا هذه المساحة الهائلة من أرض مصر، التى كانت من ألوف السنين طريقاً ومقبرة للغزاة. فسيناء هى المكافأة عن الحرب المنتصرة والسلام ثمرة للحرب والذى هو أيضاً مهدد بالضياع إذا عدنا إلى القتال..

وتعمير سيناء دعوة إلى ملايين الشبان المصريين بأن يغامروا. وهى مغامرة محسوبة. فهناك الأرض والماء والحياة العجيبة.

وكانت سيناء مثل «الخطيئة الأولى» فى أعماقنا. مثل خطيئة آدم عليه السلام وحواء، عندما أكلا من الشجرة المحرمة.. فانزلهما الله من الجنة إلى الأرض. فالحياة على الأرض هى بسبب الخطيئة، ولذلك لا بد من التكفير عنها بالتوبة والصلاة، حتى نعود إلى الجنة مرة أخرى.. فى كل حروبنا مررنا بسيناء. وأنهزمنا عليها وكان ضياعنا تحت رمالها، كما ضاع قوم موسى أربعين عاماً.. فوقها.. وكان أملنا دائماً أن نهزم من هزمنا، وأن نطرد من طردنا.. حتى كانت أنتصارات مصر سنة ١٩٧٣.. لقد كانت نصراً عظيماً، ولكن نكسة ١٩٦٧ كانت أعمق.. فنحن خرجنا سنة ١٩٧٣ من سجن ١٩٦٧، محطمين نفسياً ومادياً. ولكنا خرجنا. وفرصتنا الآن أن نكفر عن خطيئة فقدان سيناء، بتعميرها وتحويلها من صحراء إلى جنة..

وأخشى أن يكون تعمير سيناء، تليفزيونياً فقط ــ أى مشاريع تظهر فى المناسبات القومية على الشاشة، تولد فى الخطب وتدفن فيها أيضاً.. ولكن خوفى هذا يرتد إلى، عندما أيقنت صدق هذه النيات الرسمية والشعبية، وحقيقة المشروعات التى قامت وتقاه بالأيدى السعيدة والقلوب المؤمنة.

□ □ □

فى الصحف الفرنسية اعلانات: مدرس للغة الانجليزية ولكل المستويات يمكن الأتفاق على الأجر معه شخصياً. مدرس للرياضيات يتقاضى عن الحصة لمدة ساعة عشرين جنيهاً.

لقد بدأ موسم الدروس الخصوصية فى فرنسا أيضاً ويسمون هذا الموسم: ربيع المدرسين. ولكن هذه الدروس الخصوصية أنتشرت فى فرنسا لنفس الأسباب التى لدينا ولأسباب أخرى.. مثلاً: تدريس الرياضيات للأطفال فى جميع المراحل ضرورى لأن الآباء لا يعرفون الرياضيات الحديثة ولذلك فهم عاجزون عن مساعدة أبنائهم.

ولأن الطبقة المتوسطة لديها طموح عظيم فى أن يكون أولادهم أحسن حالاً فقد دفعهم ذلك إلى تشجيع الدروس الخصوصية لأن تحسين الحال لا يجىء إلا عن طريق النجاح فى المدرسة.. ثم ان الدروس الخصوصية احياء لعادة أقطاعية قديمة ــ فقد كان أبناء الأقطاع لا يذهبون إلى المدارس وإنما تجىء المدارس إليهم ــ فلهم مدرسون خصوصيون.

وفى فرنسا أيضاً يرون أن أنتشار الدروس الخصوصية دليل على ضعف مستوى التعليم نفسه وضعف المستوى الأجتماعى والمادى للمدرسين ولذلك فكثير من المدرسين ــ أيضاً ــ يفرضون على تلامذتهم هذه الدروس الخصوصية وإلا فلا نجاح مضموناً لهم فى أمتحانات النقل بين السنوات أو الشهادات العامة. ولم تستطع الدولة أن تفعل شيئاً لأن المدرس حر وولى أمر الطالب حر أيضاً.

وأباء الطلبة مشغولون فقط بنجاح أولادهم وليس بتفوقهم... لعلهم يتصورون خطأ أن النجاح هو الطريق إلى التفوق. مع ان تفوق الطالب لا يكون بسبب نجاحه المستمر.. فقد يتفوق الطالب فجأة لأنه كان فاشلاً مغموراً معظم الوقت إلا أن التفوق ليس فى النجاح أى الأنتقال من سنة إلى سنة ومن مرحلة إلى مرحلة وإنما يتفوق الطالب لأن هناك موهبة كامنة نحن نعطيها فرصة الظهور...

وكثيراً ما كان التعثر العنيف سبباً فى ظهور الطلبة المتفوقين أو العباقرة.. فما أكثر الذين تعثروا وسقطوا.. وكان لسقوطهم دوى أدى إلى أنفتاح رؤوسهم على العالم أو على أسرار الكون!

● ● ●

هناك عبارة للمؤرخ الكبير لورد أكتون تقول: ليس قبل مائة عام، يكون المؤرخ حراً فى أن يكتب ما يريد!

أى ان الانسان من الممكن أن يروى الأحداث وهو طرف فيها.. ان يعايشها ويكتب سوف تكون الدماء حارة والألوان حية والأصوات واضحة ولكن لن يكون حراً، لا بسبب هذه الزحمة اللونية والصوتية، ولكن لأن صانعى الأحداث وشهودها أحياء ولأنهم أحياء فلن يكون على حريته.. سيكون خائفاً، أو سيكون مجاملاً وهكذا لن يكون دقيقاً فى وصف الأحداث!

أو بعبارة أخرى: معايشة الأحداث تجعل منك أديباً، أو شاعراً أو رساماً ولكن تحرمك من أن تكون مؤرخاً منصفاً.

فلكى تكون منصفاً، يجب ألا يهتز الميزان فى يدك. ويجب أن تكون معصوب العينين والأذنين، فلا ترى أحداً يخيفك أو تخيفه، والا تسمع رجاء ولا شكوى وأن تنشغل فقط بما يمليه عقلك على ضميرك على قلمك!

ويضرب لورد أكتون مثلاً صغيراً قد أحتار هو فى حله. جاءه طفلان صغيران يختلفان على من يكون له تمثال «بابا نويل».

فقد دخل الطفلان غرفة نومه، ورأى أحدهما التمثال وأخذه وخطفه الثانى وتمزق التمثال بينهما. وطلبا إليه أن يحسم الخلاف بينهما. والطفلان دخلا غرفة لورد أكتون اذن.. ولم يعرف أيهما الذى دخل أولاً، وأيهما الذى

رآه، وأيهما الذى مزقه فكتب رسالته المشهورة: (إلى ولدى العزيزين.. لست مؤهلاً للحكم فى هذه القضية. أحفادكما أقدر منى.. رفعت الجلسة!).

ولذلك أرى أن الكثير مما تنشره الصحف والمجلات عن مصر الحديثة يدخل فى باب الأدب والفن ويخرج من باب العلم ــ أى علم التاريخ المنزه عن الخوف والغضب ولذلك فمعظم هذه الكتابات أقرب إلى الخناقات والخصومات الشخصية.. وتسوية الحسابات ولذلك يتخذ الكاتب أسلوب الدفاع عن النفس.. كأن هناك تهمة.. والتهمة هى ان يكتب فى هذا الموضوع.. فإذا فعل، فيجب أن يقول: أنا.. وهكذا يقف أمام الموضوع أو القضية وليس إلى جوارها.. وقد ينسى القضية، لأنه شخصياً قد أصبح هو القضية!

مثل هذه العبارات ليس من السهل فهمها ولكنها حقيقة: أن الكون يتسع ويتراجع إلى الوراء؟ فما هو الوراء وما هو الأمام؟ لا نعرف..

ومثل هذه العبارة: ان الزمن يؤثر فى المادة كما تؤثر كرة من الحديد وضعت فوق مخدة من القطن!

ما هو هذا الزمن وما وزنه؟ لا نعرف. ما هذا المكان أو المادة التى لها نعومة وخفة مخدة القطن؟ لا نعرف!

ان الأرصاد سجلت ساعات تدق بانتظام فى مكان بعيد عنا ألف ألف ألف مليون سنة ضوئية. والمعنى البسيط لهذه الساعات التى تدق أن هناك أتصالات بين كائنات بعيدة، أو حضارات بعيدة. وان هذا الأتصال اللاسلكى منظم. فما هو المعنى؟ لا أحد يعرف..

وقد صدرت ستة كتب لرواد فضاء أمريكان يؤكدون ظاهرة واحدة هى: ان أجساماً غريبة الحجم واللون والسرعة كانت تلاحق سفن الفضاء ليلاً ونهاراً.. وأنهم صوروها. وعندما طبعت الأفلام كانت بيضاء تماماً. فما المعنى؟

وكتاب سوفيتى يقول: ان أحد رواد الفضاء السوفيت، قد وجد هذه الأجسام الغريبة فى داخل السفينة.. وأنه لم يفلح فى تصوير لونها أو حجمها أو تسجيل سرعتها أو ذبذبتها.. طبعاً ولا كيف ظهرت ولا كيف أختفت. ولكن كل ما يذكره ان وجودها فى السفينة قد أصاب جميع الأجهزة بالرعشة والهذيان!

في مذكرات أحد علماء هيئة الفضاء الأمريكية صدرت فى العام الماضى جاءت فيها هذه الواقعة : أنه عندما كان جالساً وحده يتناول غداءه وجد فى المقعد المواجه له كائناً غريباً لا هو ضوء ولا هو ظل ولكنه مثل سحابة لها شكل انسان .. وأختفى !

المعنى هو ما قاله الله تعالى : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً !

■ ■ ■

مشغول أنا بالتاريخ الفكرى للخمسين عاماً الماضية. فأنا دائماً دائب البحث عن علامات للطريق.. عن خريطة لوجدان مصر.. وكما تتحدد الخرائط بالطول والعرض والأنهار والجبال والبحار فكذلك هذه الرقعة الفكرية فى العالم العربى وفى مصر بوصف خاص..

فأنا أبحث عن «العلامات» أى الفكر الذى هو علامة فى الطريق.. أو الكتاب الذى هو أهم تضاريس المعاناة الفكرية والأدبية..

وأنا أتساءل عن دلالة التماثيل فى الشوارع عندنا.. لماذا نحن نصنع تماثيل للسياسيين فى الشوارع أما الأدباء ففى حديقة صغيرة لا يراها ولا يراهم أحد.. وإذا كان لأم كلثوم تمثال، فهو فى مدينة المنصورة بلدها — يتغطى بهباب القطار — تمهيداً إلى دفنه لحقارة شأنه ولأنه أهانة لصاحبته العظيمة فليست عظمة أم كلثوم أنها ولدت فى محافظة الدقهلية ولكن أنها أجمل الأصوات فى تاريخ الغناء العربى وان مكانها فى قلب العواصم وأولها القاهرة.

ألا يدل ذلك على الأثر الضئيل للفكر والأدب والشعر فى حياتنا..

فهل هناك كتب تِعتبر علامة فى الطريق؟ هناك، ولكن لا أثر لها لأن المتعلمين فى بلادنا قليلون جداً والمثقفون أقل كثيراً.

وكان الأستاذ العظيم العقاد يقول: لو قرأ الناس كتابه عن «الله» لوجدوا فيه عبارة يستحق عليها الأعدام ولكن الناس قرأوا، أو بعضهم قرأ ولكن لم يفهم..

ولذلك خرج كتابه وأعيد طبعه ولم يلق من الناس ما كان يستحقه، .. أو ما كان يتمناه المؤلف من هز العقول!

ولو قرأ الناس «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ.. أو قرأوا «عودة الوعى» لتوفيق الحكيم أو قرأوا «المنطق الواعى» لزكى نجيب محمود لزلزل أعمق أعماقهم..

لو قرأوا «معالم فى الطريق» لسيد قطب.. لو قرأوا من تاريخ الألحاد فى الإسلام» لعبد الرحمن بدوى.. ولذلك تحيرت تماماً فى رسم علامات الخريطة الثورية للفكر المصرى!

□ □ □

ما دمنا نحل المشاكل، فنحن أكبر منها وما دمنا نعجز عن حل مشاكل أخرى، فهى أكبر منا. وفى جميع الحالات لا نستطيع أن نحلها وحدنا.

وبعض المشاكل تحتاج إلى أن نضعها فى المقدمة ــ أى أننا نغير ترتيبها فى كشف الأهمية بالنسبة لنا.

وجميع المشاكل يجب أن نحلها ونشرحها ونوضحها. ويكون ذلك بالعقل والحساب..

وطلبة الأقتصاد والعلوم السياسية يعرفون حكاية «التفاحة»..

فقد جلس عدد من علماء النبات والوقاية والتجارة والبنوك والخارجية والداخلية أمام تفاحة. وأمسك كل واحد ورقة ليكتب فيها ما الذى يعود على الشعب وعلى الأنسانية من زراعة التفاح..

وأنطفأ النور، فلم يشعروا بذلك. وتوقف جهاز التكييف. ودخل الجرسون بالمشروبات. ولكن أحداً لم ينتبه.. وإنما ألتصقت عيونهم بالورق، كما ألتصقت أصابعهم بالقلم. وتركزت ثقافتهم وتاريخهم، ودارت آمال البشرية هالات حالات حول رؤوسهم..

ودخل طفل صغير.. ونظر إليهم ولكن أحداً لم يهتم به. ووجد مقعداً خالياً وجلس، ومد يده إلى التفاحة وراح يأكلها.

أنتهت المشكلة.. وهذا هو الحل..

لقد نسى العلماء فى أوراقهم أن حل مشكلة التفاح هو أن يأكلها أحد .. !

ليس هذا الحل هو كل الحلول. ولكنه أهم الحلول. وليس حل المشاكل سهلاً هكذا. ولكن هناك حلول سهلة .. والحل والمشكلة توأمان ـــ وسوف تكون هاتان الكلمتان لخمس سنوات أخرى، أكثر الكلمات الشعبية عند الذين يواجهون الشعب ويستعجلهم ليلاً ونهاراً، ان ينزلوا بالجنة من السماء إلى الأرض!

ورغم إستحالة ذلك، فإن كثيرين يعدون الناس بها.. وأغرب من ذلك أننا نصدقهم!

● ● ●

كل الحروب تتضمن عنصراً دينياً. ولذلك فكل الحروب صليبية. وهى لذلك لن تنتهى..

وأمامك ما يجرى فى العالم كله: ماذا يحدث فى أيرلندا شمالاً وجنوباً. خلاف مذهبى مسيحى بين البروتستانت والكاثوليك..

ماذا يحدث بين روسيا والصين، خلاف مذهبى شيوعى! ماذا بين روسيا «والشيوعية الأوروبية»؟ خلاف على من الذى يأمر الشيوعيين فى العالم فيطيعون، هل هى موسكو وحدها أو أن كل العواصم الأخرى يجب أن يكون لها رأى مثل بلغراد وبكين؟

ماذا بين دمشق وبغداد؟ خلاف مذهبى بعثى!

والذى بين إيران والعراق؟ خلاف بين الشيعة المسلمين.. ثم الذى فى لبنان.. إنهم المسلمون السوريون يساندون الموارنة المسيحيين الذين يساندهم اليهود، ضد المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين؟

وماذا يجرى فى جزيرة مانديناو بالفلبين إنهم المسلمون فى حرب مع المسيحيين الكاثوليك ويموت منهم الألوف شهرياً!

ولماذا يقف إثنان من الحاخامات فى إسرائيل فى استقبال الرئيس السادات متجاورين ولا يكلم أحدهما الآخر؟ إنه الخلاف الدموى بين الأشكنازيم الغربيين والسفرديم الشرقيين.. ثم بين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم «حراس المدينة» فى إسرائيل ويطالبون بالجنسية الأوروبية لأنهم

يكفرون بدولة إسرائيل.. ثم من هؤلاء اليهود المصريون المحتقرون جداً فى إسرائيل أى «القراءون» ومن أسمائهم: عبد الله وعبد الرحمن وعبد العظيم، وتنظر إليهم إسرائيل على أنهم كفرة.

وغير ذلك فى كل مكان..

ما المعنى؟ المعنى أن فى الدنيا مذاهب دينية وسياسية تخلق الحرب وتجعل الحقد أكبر، والحب أقل.. إن هذه المذاهب نوع من الكراهية المنظمة!

يا ترى هل يبدو مستشفى المعادى جميلاً هادئاً ونظيفاً أنيقاً، وأطباؤه دواء، وممرضاته ملائكة؟ هل يبدو ذلك لو كان الانسان مريضاً أو زائراً لمريض.. أم أنه يبدو هكذا فقط عندما يكون الانسان محباً للأستطلاع فقط..

فعندما كانت أمى مريضة، أنقلب الأطباء فى عينى وأذنى إلى سفاحين، والممرضات إلى مصاصات للدماء.. مع أنه لا ذنب لأحد فيما أصابها، وفى نهايتها.. أنهم جميعاً حاولوا وتعبوا، بل أن الممرضات بكين تأثراً، مع ان الممرضات لا يبكين عادة، فقد رأين كل أهوال المرض، ومعارك الميكروب وهزائم الطبيب والصيدلى فى هذه الحروب غير المتكافئة!

وكلما زرت عدداً من الأصدقاء المرضى، كنت أرى كل شيء بطيئاً.. الهواء والماء والدواء.. فقد كنت أتعجل له الشفاء، مع كل ملعقة شوربة، ومع كل حقنة ومع كل حبة.

ولو ذهب شاب تخرج حديثاً فى الجامعة إلى مستشفى المعادى، لتمنى أن يفرش حصيرة وينام فى حديقتها هو والفتاة التى يحبها.

ولا يمكن أن يبدو مستشفى المعادى هكذا لامعاً باهراً فى عيون الأطباء والممرضات. فهم جميعاً لا يرون ذلك، وإنما عيونهم وأذانهم على أوجاع الناس. وهم لا يسمعون إلا كلمة: آه ولا يرون إلا لون الدم.. وتمضى

الشهور ولا يرون الأشجار حول المستشفى ولا يشمون هواء خالياً من العقاقير.

إنها إذن مسألة نسبية: فلو ذهبت إلى أحد مخرجى السينما أثناء تصوير أحد الأفلام فأنت ترى النجوم والكواكب فى أزياء مستعارة وتحت أصباغ غير حقيقية.. ولكنهم جميعاً مخلوقات جميلة.. ولو ذهبت إلى طبيب مختص فى الأمعاء وحاول أن يعرض عليك ما أهتدى إليه الطب الحديث، لفتح لك بطون المرضى وقدم لك أحشاءهم.. وأهم ما يشغله من هذه الأحشاء ليس السليم منها ولكن الملتهب المتعفن. أن هذا أجمل ما عنده.. وكذلك يفعل طبيب التحاليل وطبيب القلب وطبيب الصدر..

وعندما سألنى اللواء صبرى إسماعيل مدير المستشفى: ما رأيك؟ قلت: رائعة! وكأنه ينتظر هذه الأجابة فقال: فعلاً رائعة!

وكل واحد منا يقصد شيئاً آخر!!

■ ■ ■

كنت ولا أزال، ممن يفضلون الأذاعة على التليفزيون ولكنى لا أدعو إلى ذلك وإنما هذا رأى شخصى ومزاج. فأنا على راحتى عندما أستمع إلى الراديو. حر تماماً فى أن أختار من بين مئات المحطات على كل الموجات فى جميع ساعات الليل والنهار.. بينما أنت لست حراً وأنت جالس مفتوح العين أمام التليفزيون. أننى أدخر نور عينى للقراءة والكتابة..

وباعتبارى مستمعاً قديماً، فإننى لا أجد بين الأصوات الأذاعية اليوم تلك الأصوات المعبرة تماماً من مثل محمد فتحى وحافظ عبدالوهاب وبابا شارو وعبدالوهاب يوسف والراعى والبشرى والحديدى وجلال معوض وفهمى عمر وسعد لبيب وصلاح زكى وتماضر توفيق وصفية المهندس وهمت مصطفى وسامية صادق وبديعة رفاعى ومديحة نجيب وأمال فهمى وأبلة فضيلة وثريا عبدالمجيد. وغيرهم. فالأصوات كثيرة جداً. ولكن الصوت الذى تشعر بأن له صفات خاصة فى حجمه وفى أدائه مختلفاً عن الآخرين.. ليس كثيراً..

والسبب هو أن البرامج الأذاعية كثيرة على جميع القنوات والمحطات وهذا العمل الهائل محتاج إلى عدد كبير من العاملين. ولابد من ملء هذه الخانات بسرعة ودون تدقيق فى الإمتحان أو فى الفرز أو التدريب. ولذلك كثيراً ما أستمعت إلى أصوات مشروخة وإلى حروف متآكله أو متساقطة. بل هناك أصوات «معيوبة» كما أن هناك وجوهاً «مضروبة» فى التليفزيون ــ وربما كان السبب واحداً فى الحالتين..

ومن الأعذار المقبولة أن العمل الأذاعى شاق جداً مهلك قاتل، وان الأغراء المادى ليس كبيراً فى مصر. ولذلك فهذه الأصوات التى نسمعها هى أفضل ما يمكن شراؤه من حناجر!

وعندما تحتفل مع الأذاعة هذا الشهر بعيدها الذهبى فلأن دورها وفضلها التعليمى والترفيهى كان عظيماً فهى المدرسة الأولى فى مصر وهى أيضاً النموذج لكل الأذاعات العربية فى العالم ـ وعقبال مائة سنة!

□ □ □

من مظاهر الديمقراطية أن تكون أحزاب، وأن تكون للأحزاب صحف. وأن تكون هذه الصحف قادرة على أن تقول ما يقوى مركزها، ويضاعف المؤمنين بها. وقد تحقق كل ذلك فى مصر. فليس فى وسع أحد أن يمنع أحداً من أن يقول ما يعجبه على النحو الذى يعجبه فى المساحة والوقت الذى يعجبه.

وكثير ما قالت الصحف القومية، أنها يجب أن تواجه صحف المعارضة وأن ترد عليها.. ولكن غلبت عليه «الصنعة» الصحفية، فهاجمت الحكومة. وكانت أكثر أنتشاراً وأشد قسوة من صحف المعارضة. وهكذا أنضمت الصحف القومية إلى الصحف المعارضة، وبقيت الحكومة وحدها ــ منتهى الظلم!

ثم أعتدلت مسارات الصحف، فظهرت صحف الحكومة وصحف المعارضة، بملامح واضحة وان كانت صحف المعارضة أقرب إلى المزاج العام، فهى تبالغ فى الجوانب السيئة من كل شىء. فلا يزال المزاج العام سلبياً يائساً..

وكان ذلك فى الشهور القليلة الماضية شيئاً محيراً. فقد كان من الصعب على القارىء أن يعرف وجه الصواب، وجانب الخطأ. أو كان من الصعب ان يعرف ما هو المطلوب من الحكومة أو من الحزب الحاكم، فأغلبيته ضخمة..

أما الآن فقد أتضحت الصورة: برامج الأحزاب نشرت ونوقشت، ورأى الناس ممثلى الأحزاب فى التليفزيون. وهو تقليد جديد.

وكل يوم يضاف إلى الديمقراطية مكسب جديد.. وقد أختفت، أو يجب أن تختفى كلمة «خائن» أو «عميل».. فلا أحد كذلك. وإنما نحن جميعاً وطنيون مصريون.. وإذا أرتفعت النبرة فى الحوار، فليس ذلك إلا لكى يسمعنا أكبر عدد من الناس.. ومهما علت الأصوات وشردت ونشرت فهى دليل على ان الحزب الحاكم لا تخيفه الحرية الممنوحة لخصومه، بل أنه حريص على بقائها ــ حماية للديمقراطية وسلامة وتقدم مصر..

● ● ●

هذا الشاب أمسك مسدساً ولوح به أمام البابا أراد أن يثير الناس وأن يفزعهم تماماً كما لو كان قد حاول إطلاق النار عليه، ثم لم يفلح .... إنه يلعب بالنار يكوى قلوب المؤمنين والناس الطيبين.. وفى المرة السابقة كان الذى أعتدى على البابا مسلماً لأسباب شيوعية، أما هذه المرة فهو مسيحى، لأسباب جنونية.

وليست هذه المحاولة وغيرها من قبل أو من بعد، إلا أعتداء على الدين وعلى القيم الأخلاقية، والذين يمثلونها. ولذلك فالرصاص الذى أنطلق على الرؤساء والزعماء ليس إلا أعتداء على السلطة أو الحكومة أو القانون أو على الذين يمثلونه..

والمعنى واحد وهو أننا فى زمان يضيق فيه الناس بكل ما هو سلطة. أو مذهب أو قانون. أو نظام. أو دين. ليس كل الناس يفعلون ذلك. ولكن عندما يتمسك الناس بقانون يحاول آخرون أن يتنصلوا من ذلك أو يرتدوا أو يهربوا. ففى عصرنا تتجمع كل عناصر التشدد الدينى والسياسى وكل نزعات التحلل السياسى والأخلاقى..

ولكن القانون أقوى لأن الناس يريدون لحياتهم أن تستمر ولأمنهم أن يبقى ولمصالحهم أن تدوم.. بل إن القانون يحمى الخارجين عليه ويمكنهم من الدفاع عن أنفسهم فالذى قتل كيندى ما يزال حياً، والذين أصابوا البابا وريجان والسادات ما يزالون أحياء. لأن القانون الذى تآمروا عليه قد ضمن لهم حق الدفاع عن أنفسهم. ومن قبل الباباوات والرؤساء والأنبياء

والقديسين.. ومن قبل هؤلاء كان هابيل وقابيل أحدهما قتل الآخر، مستهلاً الحلقة الأولى من سلسلة لا تنتهى لحقد الانسان على الانسان!

وإذا كانت الأغتيالات لها هذا الطابع الدينى، فالحروب كلها مقدسة ــ مع الأسف!

* * *

ألتفت المرشح إلى الجالسين إلى جواره وقال: أسألوهم.. لقد كنا نسافر معاً إلى أوروبا.. وكنا نشترى الجبنة السويسرى ونشترى الجوز واللوز لأطفالنا.. خوفاً من أن يعيش أطفالنا ويموتوا دون أن يعرفوا ان هناك شيئاً أسمه لوز وبندق.. فقد كانت هذه فاكهة نادرة فى عهد الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر.. أسألوهم.. لقد كانت مصر سجناً كبيراً لا دخول ولا خروج! أسألوهم.. أما الآن فاذهبوا إلى محلات البقالة والسوبر ماركت.. وأمامكم أعلانات التليفزيون.. ما الذى ليس فى مصر من أطعمة ومشروبات وصناعات. ما الذى لا يمكن شراؤه بالتقسيط وفى استطاعة مصر أن تكون أحسن وان تكون أعظم وأروع.. أن المناخ العام فى بلادنا يشجع على العمل وعلى الأنتاج.. أخرجوا من القاهرة.. أذهبوا إلى الضواحى.. ما الذى ترون؟ عمارات وشوارع ومدناً ومصانع.. للمصريين وبأيديهم وبفلوسهم.. لقد كان.. وسوف يكون الصعب ممكناً.. وقد كان الممكن مستحيلاً.. أسألوهم..

ووقف كل واحد يروى قصة.. كيف كان الخروج بقرار من مجلس الوزراء. وكيف كان المبلغ المسموح به خمسة جنيهات لكل مسافر. وعلى كل مسافر أن يسرق وأن يهرب أموالاً وعليه أن يعود إذا عاد حافياً عارياً وإلا سلخوه فى جمرك المطار. بينما كان رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت يعود وحده بطائرة قد أمتلأت بالسجاجيد وعشرات الشنط من الأقمشة والملابس لكى تباع فى السوق السوداء وهى قصة معروفة.. أما الآن ففى أستطاعة أى أحد أن يسافر وان يشترى وان يعود بعشرات الشنط.. ووقف

ثان وثالث يقول : كيف أنفتحت الدنيا أمام الجميع · الصغير والكبير.. حتى الفلاح سافر إلى العراق والأردن والسعودية يزرع ويبنى .. ويعود إذا أراد ليشترى أرضاً وبيتاً .. ألا ترون أن الأبواب والنوافذ مفتوحة على مستقبل أفضل ؟

■ ■ ■

يا أخى أنا قلقان على مصر!

تسمعها من كثير من الناس. والذى يقلقه على مصر هو أنه يريدها أن تكون أرفع أى أكثر تقدماً. وان تكون أنظف. أى أقل تلوثاً ــ هواء وماء وأرضاً وعرضاً..

وكلنا يتمنى لبلده وأهله ذلك. ولكن القلق يبدأ عندما يتمنى أحدنا ذلك غداً صباحاً، أو بعد غد. فهذا الوقت لا يكفى لأصلاح طفل، فما بالك بشعب متعدد النوعيات والفئات والطبقات والدرجات والنظريات..

أما أنه من الواجب أن نقلق على بلدنا وأهلنا فطبيعى. أما ان نحدد لذلك يوماً أو عاماً، فهذا هو الخطأ ــ لأنه أستعجال لتغيرات جذرية لا يمكن أن تقع أو تتم أو تظهر آثارها فى عام واحد أو حتى عشرة أعوام. ولا بد أن ننظر إلى الوراء عاماً أو عشرة أو عشرين لنعرف ما الذى حدث. وما الذى أدى إلى ما نحن فيه. ان الذى وصلنا إليه، لم يولد ويكبر فى عام ولكن فى أعوام.. والذى ولد وترعرع ليس شيئاً واحداً... أى نقصاً واحداً وإنما عشرات من «النواقص» والعيوب والخلل والزلل والهزائم والنكسات، ثم ردود الفعل المضادة لكل ذلك...

وليست التحولات التى تمر بها مصر أو تحاول الا تجهيزاً للمسرح لتظهر وجوه جديدة وأصوات جديدة، ونظرات ونظريات..... وحتى إذا لم يفلح مجلس الشعب فى دورته هذه ان يفعل ما كنا نتمناه، فدورة ثانية

وثالثة ... فمصر عمرها يقدر بعشرات الألوف من السنين. والمقارنة بين مصر وبريطانيا أو بينها وبين اليابان، ظالمة لنا. والمقارنة بين مصر وأى بلد عربى آخر ظالمة لهذا البلد العربى. ولذلك يجب أن نقيس بلدنا بظروف بلدنا وان نحاسب أهلنا بمقاييس ومعايير مجتمعنا. والذى يقلقنا على مصر، هو الا يقلق أحد عليها ... مكتفياً بوضع اليد على الخد والبكاء على الماضى وكأنه لا مستقبل له ولنا!

□ □ □

سؤال من احدى الاذاعات العربية. ما الذى تنصح بقراءته فى شهر رمضان ؟

والجواب: أنا لا أنصح بأن يقرأ أحد شيئاً. وإنما الانسان يقرأ لأنه يحب القراءة.

وأنا أنتسب إلى هذا النوع من الناس الذى ولد والكتاب فى يده.. أى كتاب لأى أحد. فى أى موضوع. وقد أقرأ كتابين فى وقت واحد.. وقد أقلب فى عشرات الكتب معاً.

وفى رمضان يكون الجو العام دينياً روحياً شفافاً ولذلك نجد أنفسنا فى رحاب الله وكلمات الله، والذين يجتهدون فى تفسير ما أنزل الله.. وفى الأقبال على السيرة النبوية ــ أى على كفاح الرسول عليه الصلاة والسلام فى نشر الرسالة وفى أنارة الطريق.. ثم هو قدوة حسنة. وكل الذين معه يحاولون ان يكونوا كذلك. أعرف اناساً «يختمون» قراءة المصحف الشريف مرة ومرتين فى الشهر الكريم وأعرف من يعكفون على تفاسير القرآن الكريم أو شروح السيرة النبوية أو الأحاديث.. أو التنقل بين المساجد وراء الخطباء والمحدثين. وأعرف قليلين يفضلون ان يذهبوا إلى المدينة المنورة للأستشفاء الروحى.. فالمدينة المنورة تشفى النفوس وتعالج القلوب، وترد الروح التى فارقت أجسادنا تحت أثقال الحياة اليومية الفاسدة، والأفكار الملوثة والصراعات الدموية.

أما الأغنياء ــ أغنياء المعانى فهم الذين يجلسون مع أنفسهم ــ فلديهم الكثير من الحسابات التى يجب تصفيتها، ولديهم الأحاديث المؤجلة مع النفس، ولديهم ما يجب تنظيمه وترتيبه. فهذا الشهر العظيم هو فرصتهم السنوية التى منحها الله لعباده ــ وبينهم وبين أنفسهم يقرأون ويكتبون ويتأملون، وهم سعداء على كل حال!

• • •

قابلت شاباً مصرياً عائداً من ألمانيا. جاء متأخراً بعض الوقت، فلديه برنامج لحزب جديد أسمه «حزب الأشجار» ـ أى الدعوة إلى زراعة الأشجار فى كل مكان فى مصر، فعلى الرغم من أننا فلاحون أولاد فلاحين ومن ألوف السنين، فإننا أصبحنا أعداء لكل أرض مزروعة.. ولكل زهرة يانعة، وشجرة طالعة.. أى أننا أعداء للحياة بصورتها النباتية والحيوانية.. وعداوة الحياة تماماً كالحرية لا تتجزأ. فالذى يعادى النبات عدو للحيوان، عدو للانسان.

هل لأننا تعذبنا بأرضنا، واحتقرنا الغزاة لأننا فلاحون، كرهنا الأرض وزراعة الأرض، وأصبح العدوان على الأرض المزروعة، أعتراضاً صارخاً على كل من يصفنا بأننا فلاحون.. فنحن نقضى على الأرض، أى على حيثيات الحكم بأننا فلاحون..

أو هل هى غريزة التخريب والتدمير أو حب البكاء على الموتى، من الأباء والأجداد، والأشجار المقلوعة..

ان أرضنا الزراعية لم تزد الا قليلاً عما كانت عليه أيام الخديو إسماعيل أى منذ مائة سنة..

والدعوة إلى زراعة الأشجار، هى دعوة إلى حماية البيئة النباتية والحيوانية والانسانية.. هى دعوة إلى مقاومة التلوث والسموم الكيماوية التى ملأت الماء والهواء والخضروات والألبان واللحوم..

ليست متأخرة جداً هذه الدعوة أيها المصرى المحب لبلادك ، فأمامك فرصة أخرى فى أنتخابات قادمة .. وفى أستطاعتك الآن أن تدعو للحزب الجديد الذى سوف يضم الفنانين والشعراء وعشاق الجمال ودعاة السلام وهم فى كل حزب وكل دين !

وقد قرأت برنامج الحزب : شاعرى رقيق لطيف .. ولكنه لا يحدثهم عن الرغيف الذى يجىء من القمح ومن الذرة .. ولا كيف يجعل الطعام والشراب أرخص وأوفر .. وإنما هو يحدثهم عن « الترف » الفكرى والفنى .. ولذلك فالحزب فى حاجة إلى « توطين » إلى تمصير .. وبعض الوقت !

سيء مفرح حقاً أن نفتح كل يوم أحد الكبارى الجديدة فى وسط القاهرة، تخفيفاً لزحمة المرور، فتتعلق اللافتات كأنها ألسنة تزغرد بأسماء الشركات التى ساهمت فى هذا الانجاز العظيم وتنتهز هذه المناسبة لتكشف عن سر عظمة «المصريين أهمة».. أما هذا السر فهو: العمل شرف.. العمل واجب.. الواجب دين.. من أجل مصر قام الكوبرى.. ومن أجل الكوبرى تهون أرواح الشهداء.. إلى آخر هذه العبارات التى لا نظير لها فى أى بلد متحضر ـ فقد رأيت قاعدة «ناسا» لأطلاق سفن الفضاء الأمريكية، ولم أجد شيئاً من ذلك.. مع ان المسافة الحضارية واسعة جداً بين بناء كوبرى بين شارعين أو مدينتين وبين بناء سفن تصل بين كوكبين.. ولم أجد أسماء الشركات ولا صورة السيد المحافظ بمناسبة رصف شارع أو تغطية حفرة أو ازالة الأدوار العليا لأسباب شخصية؟ ولكن فى مصر أمكن وسوف يحدث..

وقد رأينا الروس وهم يبنون «السد العالى» فلم نقرأ لهم شعاراً واحداً لتمجيد العمل والعاملين ـ أنهم يعملون فقط!

وفى امكانك قبل ان تصل إلى كوبرى الجيزة الذى أغلقوه أخيراً لأجراء الاصلاحات بعد شهر واحد من أفتتاحه، ان ترى ماذا أصاب ...برى أكتوبر.. لقد ظهرت الحفر وخرجت أحشاء الكوبرى، والتوت ...الحديدية.. ولم يقترب أحد لأصلاح شيء..

أما كوبرى الجيزة فقد بدأت الاصلاحات بعد البناء مباشرة.. حين قفزت الأعواد الحديدية تحت عجلات السيارات. وبدأ دفن الحديد فى الأسمنت.. وأختفت كل الزغاريد وكل اللافتات التى أعلنت عن أسماء الذين آمنوا بالعمل وأعجبوا كثيراً جداً بعبقرية «الانسان» المصرى — الذى هو أعجوبة البشر.. لماذا؟ لأننا نؤمن بأن هناك نوعين من البشر: مخلوقات الله كلها ثم المصريون. لماذا؟ والجواب: لا يوجد سبب علمى ولا سبب عملى ولا سبب أخلاقى.. ولكننا نحن نقول ذلك.. ثم لا نقول ما الذى يحدث بعد انجاز أى عمل..

■ ■ ■

رأيت بور سعيد يوم كانت حاملة الطائرات الامريكية يوجيما تقف عند مدخل القناة. فانتقلنا إليها بإحدى طائرات الهيلوكوبتر وكانت مدينة عائمة. ولا أعرف ما الذى تفرجنا عليه. ولكن كل ما كان عندنا هو شعور بالامتنان للذين ساعدوا فى تطهير القناة من الألغام والأسلحة ومخلفات الحرب.

ولم يكن فى مدينة بورسعيد أحد.. اللهم إلا مطعم جـــانولا الذى يعتز العاملون فيه بأنهم موجودون رغم كل الظروف ليؤكدوا لأنفسهم وغيرهم أن بورسعيد. مدينة لا تموت، وأن العالم كله إذا كان يعيش على الماء الحلو، فهى تعيش على الماء المالح والكلمة الحلوة.. وإلا بعض المقاهى فى الحى الغربى..

وعلى الرغم من أن الشوارع مظلمة، فإن عيون الناس مضيئة بالأمل والإصرار على الحياة. وكان لهم وكان لنا، ما أردنا تمنينا فعادت الحياة إلى القناة وإلى بورسعيد وإلى مصر، وإلى السفن العالمية.

ويومها دعينا أو استدعينا إلى احدى كاسحات الألغام البريطانية وقابلنا القبطان الانجليزى. أنه صورة طبق الأصل لما نعرفه فى الكتب عن القبطان الانجليزى بقوامه الممدود ووجهه المشدود ولغته التى تخرج من أنفه.. وبسرعة عاتبنا على أن الصحف المصرية تكتب عن جهود الامريكان أكثر من غيرهم ــ وكان على حق فى ذلك!

ويبدو أنه لم يكتف بهذا التلميح فذهب إلى أبعد من ذلك فى أخذ الثأر فوراً فقال: أننى أقترح على الحكومة المصرية أن تجفف القناة لتستخرج منها كل علب الفول والعصير التى امتلأت بها. والتى تحدث فى أجهزة اكتساح الألغام، ما تحدثه الألغام نفسها..

ولم يكتف بذلك فقال: أريد أن أعرف منكم ما الذى يجعل إنساناً يمشى إلى جوار القناة ومعه علبة صفيح فارغة، لا يلقى بها فى الصحراء بدلاً من القناة؟

ونسينا أن نسأله: ولماذا لا تكون هذه العلب من الجانب الاسرائيلى؟

فتطوع أحد الخبراء بالرد قائلا: الجنود اليهود يستخدمون العلب البلاستيك.. وبقدر سعادتنا بما رأينا، وبما تمنينا، فإن هذا القائد الانجليزى قد نكد علينا ورأينا فى صورته وصوته: كرومر وكيلرن وأيدن!

ولكن أين هو وأين هم جميعاً الآن؟

□ □ □

لا توجد عندنا وسائل لقياس الرأى العام، لمعرفة نبض الفكر السياسى أو الأجتماعى.. فنحن لا نعرف ما الذى، ومن الذى يحبه الناس أو يكرهونه. ولماذا؟ أننى أتحدث عن الهيئات المعروفة الموثوق بها، ولا أتحدث عن أجهزة الأمن وجمع المعلومات وتحليلها لمساعدة الدولة على الدراية بما يحدث فى البلد وبين الناس..

فالصحف العالمية تطلعنا من حين إلى حين، وفى الأزمات الفكرية أو الدولية، بما يقوله الناس.. على شكل أرقام أو أسماء.. كم فى المائة يكرهون ريجان وكم فى المائة يبغضون الخمينى. وما رأى الناس فى الشهور الستة الماضية أو فى مثل هذا الوقت من العام الماضى..

ونشرت مجلة «لير» الأدبية الفرنسية أن أوروبا كلها عندما أختارت أعظم عشرة أدباء كان الشاعر الأنجليزى شيكسبير رقم واحد، والشاعر الالمانى جيته رقم ٢، والروائى الأسبانى سرفاتس رقم ٣، والشاعر الايطالى دانتى رقم ٤، والأديب التشيكى كافكا رقم ٥، والروائى الفرنسى بروست رقم ٦، والروائى الألمانى توماس مان رقم ٧، والمسرحى الفرنسى موليير رقم ٨، والروائى الأنجليزى جويس رقم ٩، والروائى الأنجليزى دكنز رقم ١٠ ..

ولكن عندما أجرى هذا الأستفتاء عند الأنجليز (أعظم عشرة أدباء فى العالم) لم يختاروا أديباً أنجليزياً واحداً!

وأنزعج الأدباء والنقاد وراحوا يسألون ويدرسون لماذا لم يعد الأنجليز

يرون فى أدبائهم العظام أحداً يستحق الأهتمام. أنها مأساة أدبية وفكرية تستحق الدراسة. وعكفوا على الدراسة..

لا أعرف هل يحدث نفس الشيء ـ ان يحدث ـ ولم يجد الناس فى مصر أديباً مصرياً قديماً أو حديثاً، يستحق القراءة..

لا أظن. أى لا أظن أن أحداً سوف يجرى هذا الأستفتاء، ولا إذا أجراه أن يهتم أحد بهذه المأساة؟!

• • •

في مثل هذه الأيام من كل عام يتردد هذا السؤال : ما الذى سيفعله الشباب ؟ والسؤال ينطوى على تكريم للشباب وسوء فهم أيضاً . فنحن عندما نسأل عن الذى سوف يفعله الشباب معناه أننا عندما نريد أن ننجز شيئاً فأننا نتجه إلى القادرين على العمل . وليس أقدر من الشباب ، وليس أحوج منا إلى أعماله وانجازاته وحيويته من أجل مصر ..

ولكن فى هذا الوقت من العام يكون الشباب قد خرج من معركة طويلة اسمها الامتحانات المتوالية الشاقة التى «تهد حيله وتكسر عوده» ، وترهق أعصابه . وهو لذلك فى حاجة إلى الراحة . أى يحتاج إلى الراحة فى نفس الوقت الذى نتطلع إليه لكى يعمل .. ويضاف إلى ذلك حرارة الجو ، وأن الدولة كلها فى أجازة ..

وإذا كان هذا الشباب نفسه يذهب إلى الخارج ليعمل ، فلاسباب عديدة من بينها اختلاف الجو والعمل والدافع إلى العمل ثم الفسحة ..

وعيب هذا السؤال التقليدى السنوى : أننا نتصور أنه لا وقت للعمل إلا فى الوقت غير المناسب أى فى الصيف بعد الامتحانات . مع أن العمل مطلوب طوال السنة . فلا يوجد شىء لا يمكن إنجازه فى بقية فصول السنة . ثم أنه ليس من الضرورى أن يعمل كل الشباب فى وقت واحد . فى الصيف مثلاً .

أن هناك أعمالاً كثيرة يمكن انجازها فى الشتاء : هل توجد مواسم لمحو الأمية ؟ هل لا يمكن زراعة الاشجار إلا فى الصيف ؟ ألا يمكن رصف

الشوارع ـ إذا فكرنا فى ذلك ـ فى الربيع أو الخريف ؟ ثم أننا لم نحدد بوضوح : ما هو المطلوب بالضبط من الشباب ؟ ما الذى نريده منه ؟ ما هو النقص الذى لا يستطيع أحد سوى الشباب أن يكمله ؟

وإذا اتضحت الإجابة عن هذه الاسئلة . فهناك أسئلة أخرى أكثر غموضاً : ما هى الهيئة أو الوزارة أو المنظمة الحزبية أو النادى الرياضى أو الاجتماعى أو الدينى الذى يتكفل بذلك ، ثم يكون فى النهاية والبداية مسئولاً عن النجاح والفشل ، وتقويم الفشل طريق إلى نجاح جديد ؟ . وقبل توضيح كل ذلك فمن الصعب أن نلوم أى شاب على أنه لم يفعل شيئاً من أجل مصر ، ما دمنا لم نطلب إليه شيئاً محدداً !

هل كانت قلوبنا تطلع وتنزل مع كرة القدم لو كانت ليبيا أو سوريا أو الجزائر هى التى تلعب فى كأس العالم ؟

أكثر الناس يقولون : نعم . أنهم عرب . فأكثر الشعوب التى رفضت المبادرة صفقت لها ولحرب أكتوبر رغم أن قادتها قد رفضوا ذلك ، وغالطوا شعوبهم . ولكن العقول تكذب والقلوب لا تكذب ..

ويكفى أن نسأل أى أحد ، أو تسأل نفسك ، كيف كان حالك وتونس تلعب وتحاول وتقاوم وتكافح .. أن ملايين المصريين ، ولا بد أن ملايين العرب أيضاً ، وربما الافارقة جميعاً كانوا يتمنون لدولة عربية أفريقية أو دولة من العالم الثالث أن تفوز بكأس العالم ..

والواقعيون المعتدلون يهنئون أنفسهم على وصول تونس إلى هذه المرتبة .

ويكفيها ويكفينا هذه المرة أن نصل إلى هذا المستوى الرفيع والذى سوف يدفع شعوباً أخرى عربية أو أفريقية إلى مرتبة أبعد من ذلك ..

وحدث نفس الشىء ، ونحن نتفرج على فريق ايران .. فإيران دولة لا عربية ولا افريقية ولكنها دولة إسلامية صديقة . ولو أنتهى كأس العالم على أن تلعب تونس وإيران ، هنا فقط ينقسم مئات الملايين من العرب بعضهم على بعض .. ويرون أن الصديق أهم من الشقيق .. أو الشقيق هو الصديق .. ونحمد الله أن ذلك لم يحدث ولن يحدث ، إذ يكفى العالم العربى والاسلامى ما فيه من تمزقات فى « الجد » ولا داعى لأن يتمزق فى « اللعب » أيضاً ..

ولا أضيف جديداً إلى مشاعر الناس ، غير أننى ابديت أسفى على أن تونس لم تستطع أن ترفع رءوسنا إلى السماء ، فتأتى لنا بالكأس .. ولكن يكفى تونس فخراً وسعادة هذه البهجة التلقائية الصادقة التى اهتزت لها قلوب الملايين ، وأقلام النقاد ، وحناجر المعلقين ، أنها من اللحظات العميقة التى ذابت فيها فوارق الأرض واللغة والسياسة والدين والجنس فى فرحة نبيلة خالصة ..

وهذا كله هو أعظم وأعمق وأبقى هدف سجلته تونس ، واحتسبه العالم كله أنتصاراً للحب والتضامن .. أن هذا الهدف ليس لتونس فقط ، إنه لكرة القدم .. أنه للرياضة القادرة على تجريد االناس من أنيابهم وأظافرهم وأحقادهم طمعهم وجشعهم وتحويلهم إلى بشر يحبون بلا مقابل .. يكفى أن الذين يلعبون عرب أيا كانوا وأيا من كانوا ، فألف مبروك لتونس وللعرب أيضا !

■ ■ ■

يشغلنى كثيراً أن أعرف ما الذى يصيب الاصوات الغنائية فى مصر.

بعض الاصوات تظهر قليلاً، ثم تختفى بالتدريج.

أحد الاسباب أن يكون الصوت ضعيفاً وأن يكون صاحبه قد تدرب قليلاً. فلما أصبح معروفاً توقف عن التدريب، وأسرف فى السهر وفى التدخين وفى الشرب.. مما يؤدى إلى ضعف صحته.

أو يكون ظهوره غير طبيعى: فرقعة.. ضجة.. أى ليس ظهوره نمواً هادئاً محسوباً.

ولكنى الاحظ أن «الحنجرة» المصرية ــ وأنا استعرض كل الاصوات الجديدة ــ حجمها الصوتى ضعيف.. وكذلك الصدور المصرية لا تستوعب إلا هواء قليلا، ولذلك فأنفاسها منقطعة. أى أن عيوبها خلقية.. أو أن بها عيوباً، ولكن أحداً لم يحاول صقلها بالتدريب على الغناء وبالتدريب على التنفس تحت الماء ــ فكل المطربين العالميين يتدربون على التنفس تحت الماء.

لأن الغناء: تنظيم للتنفس!

فلا تبقى إلا الاصوات النسائية المغربية والسورية: عزيزة جلال وسميرة سعيد وميادة الحناوى. أنها جميعا أصوات سليمة وقوية. ولكنها متقاربة مما يصعب على الاذن أن تميز وتفرق بينها. فليست لها الشخصية الواضحة، التى لأم كلثوم وفيروز وليلى مراد وفايزة أحمد وصباح وشادية وسعاد محمد ونجاح سلام.

وأهم من كل ذلك ليس لدى واحد من هذه الأصوات الجديدة : الصبر على الكفاح وعلى مواجهة مصاعب الظهور والزحمة الشديدة أمام الميكروفون والشاشة .. وعلى مقاومة اغراء الشهرة والمال وفتنة الجنس .. وكذلك البقاء فى صحة وعافية ـــ أحسن الامثلة على ذلك الموسيقار محمد عبد الوهاب والسيدة أم كلثوم .. وهما مثلان باقيان على الموهبة والارادة ..

هل ننتظر بعض الوقت .. عشر سنوات .. عشرين . طبيعى أن نفعل ذلك ، فلا نملك إلا الصبر على قضاء الله وقدره !

□ □ □

لو قال لك أحد أنك حساس، فهو يعنى أنك تتأثر بسرعة.. أو أنك مصاب بمرض الحساسية أو مصاب بالأمراض الكثيرة التى تكون الحساسية أحد أسبابها.. أى أنك واحد من ٥٠٠ مليون يعانون من نفس هذه الأعراض. أما هذه الاعراض فهى التهاب الجلد وظهور الحبوب وضيق النفس وانقباض المعدة وتقلص الأمعاء وارتفاع الضغط. لماذا؟

أحد هذه الاسباب: اللبن.. أو التراب أو «الوبر» الذى يتطاير من الأقمشة الصوفية.. أو بعض الروائح.. أو المواد الكيماوية التى نستخدمها فى ابادة الحشرات.. هذه المواد تشمها مباشرة أو تمتصها النباتات التى تأكلها الابقار فتظهر فى اللبن بعد ذلك.

أو المواد الكيماوية الموجودة فى الماء والهواء بسبب عادم السيارات والمصانع أو دخان السجاير..

ولكن إذا قرأت فى الصحف أن ابا قتل ابنه لخلاف بينهما على امرأة، وأحسست بدوخة كلما رأيت صورة للاميرة ديانا تحمل طفلها الصغير فأنت مصاب بمرض الحساسية. أما تفسير ذلك فهو أن الاب اسمه «داود» والمرأة اسمها «دولت».. أى أن حرف «الدال» فى اسماء ديانا والابن والمرأة هو الذى يطلق النار فى جسمك.. وهذه ليست حساسية كيماوية.. وأنما هى حساسية نفسية اجتماعية أخلاقية دينية.

ويذهب المتحمسون لنظرية الحساسية إلى أن كل ما نسميه بالادب الرومانسى والادب العذرى، ليس إلا حساسية مرضية، أصيب بها بعض

الفنانين.. وأن الشعر الجميل الذى تغنينا به طويلاً كان من أعراض الحساسية.. التى أدت بشعراء الغزل عند العرب والتروبادور فى اسبانيا والرومانسيين فى أوروبا أن يسعلوا وينزفوا دماً.. فقد كانوا مصابين بالسل.. إذن لم يكن هذا الشعر الجميل الرقيق الذى تغنى به الاصحاء، إلا من أعراض الحساسية..

● ● ●

١ ــ عندى مقياس لمعرفة كيف يتكلم الشباب لغتهم العربية. وذلك فى البرامج التى تلتقى فيها الكاميرا بالطلبة فى الشوارع.. أولاً: هؤلاء الشباب يتكلمون بسرعة جداً. وفى هذه السرعة تتأكل الحروف وتتساقط وثانياً: مفرداتهم اللغوية قليلة جداً.. ولذلك نجدهم يتهتهون ويتأثأون وثالثاً: معلوماتهم قليلة بما يدل على أنهم، لايقرأون بدرجة كافية..

وقد ادهشنى كثيراً جداً أن أجد طلبة فى الجامعة، يتحدثون فى الاذاعة والتليفزيون وكأن اللغة العربية لغة ثانية أجنبية.

وافزعنى وأثار غيظى أن أجد بعض الطلبة يقولون: أن لغتهم العربية ضعيفة. ويكون هؤلاء الطلبة فى مدارس أمريكية أو فرنسية. وهو عذر قبيح جداً ومرفوض فوراً من أى مصرى.

وأذكر أننى كنت عضواً فى لجنة امتحان مذيعات التليفزيون. وكانت أمامنا طالبة جميلة ومعلوماتها جيدة. وصوتها سليم ولكنها لاتعرف كيف تنطق حرف القاف. وكان اصرارى على سقوطها رغم اعتراض بعض أعضاء اللجنة وسقطت وكان لابد من ذلك. لأنها لاتعرف أن تنطق أحد حروف الهجاء فإذا ظهرت على الشاشة كان ذلك دعوة لان يفعل الصغار والكبار مثلها.. وبذلك تساعد على تساقط بقية الحروف مثل الفاء والذال والظاء والصاد وغيرها..

ولا أجد عذراً من أى نوع للسادة الضيوف الذين يظهرون على الشاشة ويتدحرجون إلى أخطاء النحو والصرف والإنشاء والبلاغة. لقد كان تشرشل

السياسى الحائز على جائزة نوبل فى الادب، يقرأ من ورقة وسمع منه الناس أجمل العبارات وأقواها.

أذكر أننى هاجمت أحد وزراء العمل بسبب خطاب القاه وكان مليئاً بالأخطاء.

وحدثنى الوزير فى التليفون وقال: أنت تهاجمنى لأننى من العمال.

فقلت: بل لأنك وزير.. فنحن لا نعرف ما الذى نقوله للأطفال.. هل نقول لهم لا تدرسوا لا تقرأوا، فإن الجهل بالنحو سوف يجعل منكم وزراء فى المستقبل..!

أول جريمة فى التاريخ هى أن أخاً قتل أخاه، أما أسباب الجريمة فلا تهم، وقد حاول القاتل أن يتبرأ من دم أخيه فقال عبارته الشهيرة: وهل أنا حارس لأخى؟

أى أنه من الممكن أن يفترسه أحد الوحوش، ويعجز هو عن حمايته.. أو أنه لا شأن له بأخيه، فكل إنسان يحمى نفسه بنفسه، فهو لايستطيع أن يكون حارساً له، أو لا ينبغى له ذلك!

والنتيجة أن يموت أخوه لأى سبب، ولا يحق لابيه آدم أن يحاسبه على ذلك!

ففى هذه الجريمة الأولى فى التاريخ خليط من اللامبالاة والغضب والحقد والكذب وضيق الأفق..

وآخر جريمة ارتكبها أخ ضد أخيه هى جريمة بيلى كارتر شقيق الرئيس كارتر، والمجرم سكير مستهتر، لايهمه أخاه، وفى نفس الوقت لايريد أن يعيش ويموت فى الظل بينما ينفرد أخوه بكل الأضواء، ولايزال سراً غامضاً من الذى استخدم بيلى ليكون وسيطاً بين أمريكا وليبيا وإيران، مع أن العلاقة بين ليبيا وايران ليست نموذجية، فليبيا قد اغتالت أحد أئمة الشيعة.. ولا أحد يعرف كيف اقنعوا شقيق الرئيس الأمريكى من أن يكون مرتشياً بدلاً من أن يكون وسيطاً، ولا من أرتضى أن يكون الوسيط مخموراً لايعرف ما يفعل ولا ما يقول ولا من الذى دفع بهذه الوساطة الى أقصى حدود الفضيحة، ولا من الذى اختار للفضيحة أن تكون وقود

المعركة الانتخابية فى أمريكا : تماماً كما كانت فضيحة ووترجيت مصيدة الهزيمة للرئيس السابق نيكسون .. وكان من الممكن أن يقع نيكسون فى فضيحة أخرى ، فشقيق الرئيس نيكسون هو الآخر «عورة» اجتماعية وأخلاقية ومادية ، ولكن نيكسون استطاع أن يسيطر على كل خطوات أخيه وأن يحبسه فى خوف دائم .. فهل يسقط كارتر لحماقة أخيه ؟ فهل كارتر حارس لأخيه ؟

لابد أن يثبت أنه ليس كذلك ، وقد ينجح كارتر وينسى الناس ما فعله أخوه كما نسى الناس أن كيندى قد أهمل فى التبليغ عن وفاة أحدى عشيقاته .

أن الناخب الامريكى مخلوق عجيب .. لأنه الانتاج المشترك : للصحافة والتليفزيون !

■ ■ ■

أصبحت أجمل الاغنيات هى الاعلانات. فالصوت الجميل مرح والموسيقى حية ولا تستغرق إلا دقيقة أو دقيقتين. وفى هذه الفترة القصيرة شىء مثير عن الساعات والتليفزيونات والمياه المعدنية والعطور. وهذه الاعلانات الغنائية تقتحم نشرة الأخبار والأفلام حتى اعتاد الناس على الضيق بها. ولكن لاحيلة لأحد من المستمعين أو المشاهدين فى منعها. لأن هذه الاعلانات غالية الثمن ـ وبسبب هذه الاعلانات تستطيع الأذاعة أو التليفزيون أن تقدم أحسن الخدمات لملايين المستمعين. فهل هو سلطان الاعلان؟ أو هو الملل من الأغنيات العادية التى أصبحت طويلة أو غير مفيدة، وهى لذلك لا تقول لنا شيئاً مفيداً؟ وهى لا تفعل ذلك لأنه لايوجد حافز قوى عند المطرب والمؤلف والملحن. هل الاغنية الاعلانية درس عملى ناجح لما تفعله المنافسة العنيفة بين الشركات المنتجة للساعات ومواد التجميل؟

إن شركات الاعلانات قد انتقلت خطوة أكبر. فهى التى تنفق الآن على البرامج أو المسلسلات ثم تقدمها هدية للمستمعين. ولأنها قادرة على أن تدفع أكثر، فإن أحسن الفنانين قد اتجهوا إليها. وبذلك تكون الشركات قد دخلت فى منافسة مع الدولة.. وتغلبت عليها أيضاً. وبهذه المنافسة تستطيع الشركات أن تختار نوعية البرامج والمسلسلات وتفرضها. وهى عادة لاتختار إلا المادة الجذابة.. ولايجذب الناس إلا الذى يسليها ويريحها ويمتعها، وبذلك نترك للدولة البرامج الجادة أو الجافة أو ذات الهدف

التاريخى أو التربوى . وفى نفس الوقت : أقل عدد من النجوم الذين يرتضون المكافأة القليلة والعمل القومى !

وليس أمام الدولة إلا أن تقبل المنافسة وترفع الاجر إلى مستوى الشركات وإلا فعليها أن تدافع عن الانتاج المتواضع الذى تقدمه لنا بعد ذلك !

□ □ □

لابد أن قصص الأغنياء تضاعف فى تعاسة الفقراء. ولكن الشيء الوحيد الذى يسعد الفقراء أن يجدوا فى هذه القصص تدخلاً للعناية الألهية التى اعطتهم المال وأفقدتهم الصحة، أو أعطتهم الولد ولم تهبه الوفاء والامتنان لوالديه!

ومن بين قصص الأغنياء جداً التعساء جداً: السيدة بربارة هاتون صاحبة محلات وولورث المنتشرة فى كل عواصم العالم. هذه السيدة تزوجت نجوم زمانها، وإذا ما طلقت النجم اللامع أتجهت إلى الأمراء المفلسين..

وفى كل مرة تتزوج كانت تنسى أن تسأل نفسها: ولكن لماذا؟

وعندما تجد الاجابة على هذا السؤال فإنها تترك زوجها إلى زوج آخر، لقد حدث ذلك سبع مرات. ولو كانت لديها الصحة الكافية أو الذاكرة القوية. لفعلت ذلك عشرين مرة.

سألها أحد أزواجها: ما الذى يشغلك ونحن لم نتزوج إلا من شهر واحد؟ قالت: من الذى سوف يجلس مكانك فى العام القادم.

قال الزوج: ولماذا العام القادم؟ فى استطاعتك أن تختاريه الآن.

قالت: أرجوك أن تعطنى فرصة.. وأعطاها الفرصة للبحث عن رجل آخر. ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجل من بعد رجل حتى ماتت فى الأسبوع الماضى.

أما ثروتها فهى بمئات الملايين.. ولكن شقاءها كان مصدره هذه الثروة أيضاً. فكل من يريد الزواج منها، ينظر إلى ثروتها ألف مرة وإلى وجهها مرة واحدة. حتى تزوجت رجلاً غنياً جداً. ولكن ذلك لم يسعدها أيضاً. فقد قالت له يوم أن أنفصلت عنه: أنت تريد مالى.

قال أنا أغنى منك.

قالت: أنت تعرف أنى مريضة. وأننى سوف أموت لترث نصف ما أملك.

وكان هو الرجل الوحيد الذى أحبها لشخصها والوحيد الذى سار وراء نعشها..

ولكنها ماتت دون أن ترى دموعه على خده.. فقد كانت دموعاً صادقة. ولكنها جاءت بعد فوات الآوان ــ فما أفقر الأغنياء جداً!

● ● ●

نشرت صحيفة أمريكية خطاباً لعالم الأنف والأذن د. روزن هذا الخطاب كتبه بعد رحلة فى أواسط أفريقيا. يقول فى خطابه لزوجته: «أمضيت ليلة جميلة. وأجمل ما فى هذه الليلة أننى شاهدت حفلة زواج. اعترف لك بأن الناس فى غاية الرقة. وأن مشاعرهم فى منتهى «الرقة».. وأكثر شىء اعجبنى فى هذا الزفاف أن العروسين قد أعربا عن الوحدة الكاملة بينهما عندما جرحت اصبعها بأظافرها.. وفعلت نفس الشىء مع عريسها. والتصقت الأظافر الدامية.. وهنا دقت الطبول وتعالت الصيحات. وأخلى المكان تماماً. فقد اعتبرت القبيلة أن الزواج قد تم».

وليس فى هذه العبارة الطويلة التى كتبها العالم الكبير د. روزن شىء جديد.. إلا اسرافه فى استخدام كلمات «الرقة» بين هؤلاء البدائيين. ولكن أهم من ذلك كله هو تفسيره لهذه الرقة والشاعرية. يقول د. روزن: أما السبب الوحيد فهو أنه لا توجد ضوضاء فى هذه المنطقة من العالم. وحيث لا توجد ضوضاء تكون الاعصاب أهدأ. والاعمال متوازية والقلب سليم واحتياجات الإنسان معقولة. وذلك فالحب والزواج والابوة والبنوة والتماسك الاجتماعى والديمقراطية الحقة ــ كلها من أهم معالم هذه المجتمعات البدائية.

أما الجنون والتشنجات وضغط الدم والذبحة والاختلال العام فهى من أهم معالم العصر الحديث وكذلك ظاهرة الانتحار.. بل أنه يرى أن الجرائم الفردية والجماعية والحروب كلها بسبب أوجاع الضوضاء.. وانتشار

المنبهات والمهدئات .. أو على الاصح انتشار المهدئات التى تصيب الإنسان بالخمول فتدفعه بعد ذلك إلى استخدام المنبهات، كل ذلك سببه الضوضاء ..

أما الذى يؤدى إلى بعض الانحرافات والجرائم فى أواسط أفريقيا فهى الخمور. وهذه الخمور يتعاطاها الناس لأن الهدوء ممل.

وهذا الملل يغرى بالبحث عن وسائل للتغيير. ومن أهم الوسائل التى يستخدمها الناس لتغيير المزاج العام الخمور.. التى تؤدى إلى النشوة والنشوة التى تؤدى إلى الرقص.. والرقص الذى يلقى بالناس على الأرض حتى الصباح.. وكل صباح.

ولذلك يرى العالم الكبير د. روزن فى كتابه الذى صدر أخيراً ويضم رسائله إلى زوجته: أن ابناء المدن محكوم عليهم بالجنون مادامت عندهم ميكروفونات وتليفونات ومنبهات ومنومات إلا .. إذا ألغوا الحضارة كلها .. وقطعوا آذانهم تماماً ــ ومعنى ذلك أنه لا أمل لنا فى حياة معقولة إلى ما شاء الله!

✻ ✻ ✻

كنت أزور استاذاً مصرياً فى «مدرسة الدراسات الشرقية» لجامعة لندن. لم أجد إلا القليل جداً من الطلبة. أكثرهم يتناولون الغداء. الهدوء جامعى. والنظافة أوروبية والكلام همس وكل واحد يحمل الصينية ويقف فى الطابور لا أحد يقول لأحد شيئاً حتى الذين يقولون يختصرون. جلسنا نتناول غداءنا انتقلنا إلى مكان آخر لنشرب القهوة وجدت طالباً يتكلم فى التليفون وقد وضع حذاءه القذر على أحد المقاعد. المقعد ممزق. نظرت إلى التلميذ وجدته شرقياً.

وعند خروجنا من المدرسة وجدت لافتة كبيرة تقول: اللصوص نشيطون هنا.. احترس. إذا كانت لديك أموال أو أشياء قيمة اتركها عند البواب!

اللصوص؟ طبعاً من الطلبة أنهم يسرقون أموال زملائهم.. لامن مكاتبهم وإنما من جيوبهم. نشالون؟ وفى جامعة لندن؟

وفى المترو نفس اللافتة. وفى المحلات التجارية مضافاً إليها: أن اللصوص سوف يلقون عقابهم مهما كانوا ـ أى مهما كانت الكميات التى اشتروها أو البلاد أو العائلات التى ينتسبون إليها..

وفى مكتبة كبرى وجدت هذه اللافتة: يمكن تخفيض ثمن الكتب لاعتبارات أخلاقية، فلا داعى لأن نسرقها!

وسألت أحد الانجليز: من الذى يسرق؟

فقال ضاحكاً: ليس الانجليز!

وفى احدى محطات المترو تحت الأرض وجدنا هذه العبارة: الزحام هو أنسب جو للصوص!

أى لا داعى لأن تزاحم فى المترو وأن تنحشر.. اختر العربات قليلة الركاب. كيف؟ أنها نصيحة.

وأمام أحد الكباريهات هذه اللافتة: لا تخف نحن نسرق القلوب فقط!

ترى لو رأينا ـ لأى سبب ـ أن نعلق مثل هذه اللافتات فى مصر، فما الذى نقوله نحن عن أنفسنا أننا نفضل أن تنتشر السرقات وكل أنواع الجرائم وأمراض الصيف دون أن ننبه أحداً إليها.. لماذا؟ أسأل نفسك! وقبل أن تجيب أقول لك: أننا نكره الصراحة!

■ ■ ■

كلنا قرأنا عن «المهجر» أى البلاد التى هاجر إليها أبناء سوريا ولبنان. وفى هذا المهجر كان نشاطهم عظيماً وكان عائد نشاطهم أموالاً تدفقت على سوريا ولبنان. وكنا نعجب لذلك. وتسعفنا الكلمات فنقول أنهم: فينيقيون.. أى أنهم فينيقيون ونحن فراعنة. والفراعنة مرتبطون بالأرض لا يبرحونها. كأنهم يخشون ان غابوا عن مصر أن يختفى النيل أو الهرم. وظل المصريون محصورين بين الصحارى شرقاً وغرباً والشلالات جنوباً حتى الوادى الأخضر لم يحاولوا أن يوسعوه حتى لايتباعدوا وبقيت هذه «السيئة» ملازمة لنا حتى الآن. فالمدن الجديدة ملاصقة للقاهرة وحتى الشوارع فى المدن الجديدة ضيقة ـ شوارع مدينة نصر ومدينة السادات ومدينة العاشر من رمضان.

وعرفنا أن المهاجرين من ابناء اليونان فى كل مكان. وقيل لو ذهب إنسان إلى القمر لوجد جرسونا يونانياً يقول له: تحب تشرب ايه؟

ونسينا أن إسرائيل قامت بايدى وجيوب وعقول المهاجرين فى كل مكان. وأمريكا نفسها ليست إلا دولة المهاجرين. فلا يوجد أمريكى حقيقى إلا الهنود الحمر.. نحن دخلنا فى عالم الهجرة متأخرين. وكان أول دخولنا إلى البلاد العربية.. ولم تكن هجرة وإنما كانت اعارات رسمية وعقوداً شخصية ورحلات سياحية دينية.. ولأن المصريين المهاجرين لم يلقوا عناية الدولة، فقد اضطربت حياتهم، وخرجوا على القوانين كأنهم حاولوا معاقبة مصر على اهمالها فكانت فضائحهم الشخصية عاراً وطنياً، انتهى كل ذلك، والحمد لله فهم اليوم على رؤوسنا وفى عيوننا.

فهم قواتنا الشعبية فى مراكز متقدمة. يرون ويسمعون ويتعلمون ويبعثون إلينا بأموالهم وأفكارهم. وبذلك تتجاوز بهم مصر حدودها الجغرافية، وتتقدم بهم إلى الأمام.

إن الكثير من القيم والموازين والمكاييل تعتدل فى أيدينا منذ الاهتمام الرسمى الجاد بأبنائنا فى الخارج!

□ □ □

هذا الطاغية الجميل.. ألف شهر زاد التى تحكى لألف مليون شهريار اروع الحكايات والأستعراضات والأخبار فى الأرض وتحت الأرض وفى الكواكب وفى أعماق النفس والقلب: التليفزيون..

لا أنت قادر على مقاومته ولا أنت قادر على التخلص منه.. ويشكو علماء النفس من أثره على عقول الكبار وأجسام الصغار.. وعيون الجميع.. ويشكو علماء التربية من أن الناس لم يعد عندهم وقت للقراءة..

ويشكو علماء الاجتماع من أن هذا الساحر العظيم قد قطع ألسنة الناس، فلم يعد أحد يكلم أحداً.

فما اجتمع رجل وامرأة إلا كان التليفزيون ثالثهما..

ومن التليفزيون تدفقت النصائح تقول: أبعد مترا أو مترين.. لا تأكل أمامه.. لا تشرب.. لا تنم.. اغلق التليفزيون حتى تريح عينك وأذنك وصوتك.. وحتى يذاكر أطفالك.. فلن يفوتك شيء.. غداً سوف تجد برامج أخرى مماثلة وربما أفضل.. أننا فى عصر ادمان المخدرات الصفراء والبيضاء.. وأكثرها خطورة المخدرات الملونة من طراز بال وسيكام..

ولن يتوقف أحد عن الفرجة على التليفزيون مهما كانت النتائج.. فالناس أصبحوا يجدون فيه نعيم الحياة، وكبرى ملذاتها..

دولة واحدة على هذه الأرض هى التى استطاعت ومن عشرين عاماً أن تعرف خطورة الجهاز على الثقافة وعلى الحياة العائلية. هذه الدولة هى ايسلندا فهى تجعل الشاشة سوداء كل يوم خميس لا تليفزيون!

مرة واحدة خرجت عن هذه القاعدة يوم هبطها ريجان وجوربا تشوف ..

ويوم الخميس من كل أسبوع، يتفرغ الناس لحياة الأسرة والقراءة أو لعب الشطرنج. لم يعترض أحد وإنما وجدوا فى الخميس الأسود انقاذاً لحياتهم العقلية والفنية ولعائلاتهم .. فهو يوم الحرية من التليفزيون. أنه يوم توفير الطاقة وترشيد الفلوس ويوم الأسرة .. وسوف تستجيب الدولة لمطالب الشعب (ربع مليون نسمة) بجعل شهر يوليو من كل سنة شهراً أسوداً بلا تليفزيون لتكمل راحة الناس فى أجازتهم السنوية ــ ما رأيك ؟

● ● ●

اذكر أن باحثاً جاء إلى القاهرة يطلب المساعدة في اعداد معرض لرسومات الأطفال. واختار موضوعاً: السلام كما يراه الطفل..

أما فكرته فبسيطة. معه الورق والأقلام. ودخل أحد الفصول وقال: ليرسم كل واحد منكم ما الذى يفهمه عن السلام.. ما الذى سمعه فى البيت أو فى التليفزيون.. أى شىء!

واشترط أن يكون ذلك بسرعة.. ورأيت اللوحات بعد ذلك.. ومن الغريب أن أكثر الأطفال استخدم اللون الأحمر فى رسم الطيور والحيوانات وبعض الوجوه والذين استخدموا اللون الأحمر استخدموا اللون الأخضر، فى كتابة أسمائهم.. أما الذين استخدموا اللون الأخضر، فقد وقعوا باللون الأحمر. أى أن السلام أحمر وأخضر.. حرب وحياة بعدها، أو أمل فى ذلك.

والملحوظة الثانية أن الأطفال قد ملأوا الورق من أوله لآخره.. فالحياة عند الطفل مليئة بكل شىء..

طفل واحد فقط هو الذى رسم صورة لرجل وامرأة. ولما سئل قال: بابا وماما.. وبين الدموع التى نثرها حول اللوحة عرفنا جو الأسرة التى يعيش فيها. فالسلام فى البيت قبل أن يكون فى الشارع، أو سلام البيت يفيض على الشارع.. أو إذا عم السلام فى البيت. انتقل إلى الاسرة الأكبر.

ومنذ يومين شاهدت معرضاً لرسومات الأطفال.. أنها نفس الصفات: الخطوط كبيرة والوجوه ضخمة واللوحات ممتلئة واللون الأحمر يتوارى فى اللون الأخضر والعكس. وملامح الوجه مثل ملامح الحياة غير متناسبة. فالعين أكبر من الفم. والبيت أكبر من الشارع، واللوحة أصغر من أن تتسع لكل ما يدور فى خيال الأطفال. والاستغراق فى الرسم والتعبير، لم يدع للطفل مكانا يوقع فيه.. فهو قد نسى أنه من الضرورى أن يخصص مكانا لاسمه..

وقد قرأت وفهمت واسترحت فالأمل فى هؤلاء الأطفال وليس فى الذين يتفرجون عليهم!

فسدت متعتى وأنا اتفرج على فيلم عن الزعيم الانجليزى «كروموبل» الذى قضى على الملك شارل الأول لأنه ألغى البرلمان فجاء كروموبل وألغى البرلمان والنظام الملكى وأقام حكومة استبدادية شاذة فى تاريخ التطور الدستورى الهادىء فى بريطانيا.

والفيلم ممتاز ولكن الفيلم انقطع ٢٦ مرة لتظهر كلمة «نادى السينما» ومعه موسيقى جميلة. لولا أن سماعنا لها أثناء سرد الأحداث وتطورها يجعلها قبيحة ومفزعة. ولا أعرف السبب الفنى الذى أدى إلى هذا الخلل. ولكن لابد أن هناك سببا يؤدى إلى تكرار مثل هذا القطع فى هذا البرنامج وفى أفلام أخرى كثيرة. ولابد أن هناك سببا آخر لرداءة الألوان والوضوح فى الأسابيع الماضية..

ولا أعترض على الخلل، ولكن الاعتراض على أن يكون بهذه الكثرة المروعة!

وتفرجت أيضا على جانب من فيلم اسمه «المغامرون» بطولة شارل بوايبه وآخرين. موضوعه تزوير احدى مسرحيات شكسبير. الفيلم ممتع. لولا أن شيئاً غريباً قد حدث.. ففى وسط هذا الفيلم يظهر اعلان عن سيارة جديدة ومزايا عجلاتها ومقاعدها واعتدال سعرها واقتصادها فى الوقود. وهذا يؤكد أن الفيلم لم يشاهده أحد قبل عرضه فى التليفزيون أو أن أحداً قد شاهده وهو نائم، ولم ينتبه إلى أن شكسبير الذى توفى ١٦١٦ لايمكن أن يكون قد رأى أو سمع عن سيارة كاديلاك موديل سنة ١٩٧٥!

وهى أخطاء سببها الاهمال أو السهو أو الجهل. ومن الممكن اصلاحها وتفسيرها وتبريرها.

ولكن الذى لا أعرف كيف يمكن لأى أحد أن يبرره هو المسلسلات الساقطة. أى التى تم انتاجها وشراؤها وعرضها وارغام الناس على مشاهدتها.. فما معنى هذا السخف؟

ولا أريد أن اسمى مسلسلات أو أعمالا فنية بالذات، فهى معروفة ومعروضة كل يوم..

إن فيلماً جيداً نراه على عشرين مرحلة أفضل من فيلم تافه تراه فى جلسة واحدة!

وإن كنا نحلم بأن يجىء يوم ونرى فيه أعمالاً جيدة فى عشرات الحلقات دون أن ينقطع العرض. وقد حدث ذلك فى كل المسلسلات البوليسية وفى مسلسلات بيتون بليس وأغنياء وفقراء. وليس ذلك على الله ببعيد!

■ ■ ■

وكان من الضرورى أن أتوقع ذلك. لولا أننى —وغيرى من المؤلفين العرب— لا نتصور أن أحداً يستطيع أن يعيش من التأليف. كيف؟ وأين يطبع كتبه؟ وكيف يهرب من ارهاب الضرائب وسخافة قانون خنق المؤلفين وكان من الواجب ألا أساله مطلقاً. فقد رأيت من قبل كيف كان يعيش المؤلف الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا عاصمة كوبا.. ورأيت الغابات والحيوانات والقصر الجميل الذى كان يعيش فيه الكاتب شهراً من كل سنة. ورأيت البيتين المجاورين على قمة جبل سويسرا وكيف كان يعيش فريدريش ديرنمات فى واحد منهما ويكتب فى الآخر.. ورأيت القصر الساحر الذى أقامه الاديب الإنجليزى سومرست موم على شاطىء الريفيرا.. ثم كيف كان يعيش استأذنا العقاد فى ركنٍ من بيت امتلأت أرضه بالأحذية وجدرانه بالكتب. ومات يرحمه الله عن تسعين كتاباً!. كأنه ما عاش ولا فكر ولا كتب ولا كسب!

● ● ●

أعود فأوضح ماكتبته منذ أيام: أن صحتك فى أصابعك. انتهت الحكمة الصينية والهندية. وكل ماهو مطلوب منك هو أن تضغط باصابعك على أصابعك ثلاث مرات يومياً ولمدة ثلاث دقائق. لماذا؟

لأن هناك نظرية صينية هندية تقول بأن الجسم الإنسانى ملىء بالتوصيلات الكهربية.. يمكنك أن تقول أن الاعصاب هى أسلاك كهربية. وكثيراً ما حدث ماس أو تلامس بين الأسلاك يؤدى إلى انقطاع التيار الكهربى. هذا الانقطاع هو المرض..

وكما أن لكل كتاب فهرساً، أو كما أن لكل بيت من البيوت تابلوها لعدادات النور أو مفاتيح النور. فيدك هى التابلوه.. أو هى فهرس الكتاب ـ يداك. وليس فى استطاعتى أن أرسم لك خريطة التيار الكهربى فى جسمك. ولكن دون دخول فى تفاصيل لا تفيدك كثيراً، فعليك أن تضغط باصبعين على اليد الاخرى.. على الاصابع وكف اليد وما تحت الكف على الجانبين.. وفى المسافة بين الرسغ والكوع. يدك اليمنى.. ثم بعدها يدك اليسرى..

ولا يوجد وضع خاص للجسم أثناء هذه التمرينات اليومية. وإنما كل وضع يناسبك: جالساً واقفاً نائماً فى بيتك فى الطريق إليه فى دوره المياه.. فقط أن تضغط باصابعك على أصابعك.

وهناك تدريبات أخرى مثلاً: إذا أنت ضغطت على ذقنك فى ستة

مواضع فإن هذا من شأنه أن يقضى على الإمساك .. وهناك أماكن عن الرسغ للتنشيط الجنسى.

وهناك تدريبات لتغذية الارادة وتدريبات للامتناع عن التدخين، أى لتجعلك أقدر على أنقاص عدد السجائر،

وعيب هذه اللمسات اليومية أنها بسيطة وأنها سهلة فنحن قد اعتدنا على العقاقير والمضادات والمقويات والمنبهات وعلى الروشتات الطويلة وعلى أن نرى الطبيب يقلب فينا يمينا وشمالاً، وعلى أن نتطلع إلى وجهه انتظاراً للمعجزة..

ولذلك فنحن لا نأخذ مثل هذه اللمسات مأخذ الجد.. ولكن الإتجاه الذى يكتسح العالم الآن، هو العودة إلى الطبيعة.. إلى الفطرة.. إلى الطب بلا طبيب والدواء بلا صيدلية.. وإلى أيدينا وليس إلى أيدى الآخرين ــ ولا تتوقع أن تصبح فى يوم وليلة أجمل وأقوى إنسان فى العالم!

* * *

عذبني صاحب الجلالة الملك رمسيس..

فقد تابعت هذا الملك العظيم. وقرأت تلك الدراسات الطويلة عن الرجل العظيم الذى طرد اليهود من مصر وخلق عندهم «عقدة الطرد» فى كل العصور. وألفوا عنه وعن أنفسهم السفر الأول فى التوراة وهو سفر «الخروج» من مصر.. وأصابهم بلعنة الخروج والطرد من كل بلد.. حتى فى اسرائيل نفسها.. فهم لا يزالون مطرودين حتى فى الأرض الجديدة التى استقروا عليها!

وقد شاهدت «الخروج» عندما كان يتم تصويره فى فيلم «الوصايا العشر» بالقرب من أهرام الجيزة.

ثم تابعت خروجهم من كل أرض ولألف سبب.. وقد أخرجهم رمسيس من مصر وهم يعانون عقدة الشتات أو عقدة الضياع.. والتيه.. ومازال اليهود يريدون أن يؤكدوا للعالم ــ كذبا ــ أنهم هم أيضاً الذين أخرجوا رمسيس المريض من مصر.. أى كما أخرجهم أخرجوه!

ولكن العذاب الحقيقى هو الذى عانيته مع د. موريس بيكاى.. الطبيب الفرنسى الذى اكتشف مرض رمسيس ودرسه وتعمق فى ذلك. وقلب الدنيا على رؤوس كل العلماء الفرنسيين.. ووقف منه العلماء الفرنسيون موقفا عنيفا. حتى ليخيل إليك أنك فى إحدى مسرحيات الرعب! يقوم فيها موريس بيكاى بدور رمسيس ويقوم الآخرون بدور اليهود..

وقد جاء موريس بيكاى إلى مصر، وكلمنى فى التليفون من باريس خمس مرات.. يحذر وينذر وينبه. وهو لا يمل ولايكل. ويستطيع أن يروى نفس القصة ألف مرة وبحماس كأنه يحكيها لأول مرة..

وكما تفضل مشكوراً وخصنى باضطهاده! فإنه قد أشرك معى الصديق محمود أبو وافية.. فقد لاحقه فى باريس. وفى كل مكان يجد نفسه فيه يروى له خوفه من موت رمسيس مرة أخرى فى أيدى العلماء الفرنسيين الـ.. والـ.. هذه النقط ترمز لشتائم بالفرنسية يصعب ترجمتها إلى العربية، أو لعله لا يليق!

وفى آخر مرة كنت فى باريس فوجئت بمحمود أبو وافية فى التليفون يضحك قائلاً: جاءك موريس بيكاى؟

قلت له: فى عرضك فى طولك..!

ولم أكد أضع السماعة حتى كان الباب يدق فى الساعة السادسة صباحاً.. ولم يكن السفرجى يحمل طعام الأفطار وإنما د. موريس بيكاى يحمل آخر أخبار رمسيس الثانى!

■ ■ ■

نشرت الصحف اليوغوسلافية «أوراق» الرئيس السادات التى تنشرها مجلة أكتوبر. فزاد توزيع الصحف خمسين ألفاً فى كل الأيام. ومعنى ذلك أن القراء اليوغوسلاف يرون فى الذى يقوله الرئيس السادات صدى فى نفوسهم. وأنه قال ماتمنى أن يقولوه هم أنفسهم. فما الذى قاله الرئيس السادات: أنه حكى حكايته مع السوفيت. أى حكاية مصر فى عهد السادات الذى يبدأ فى سنة ١٩٧٠. ومصر فى حالة حرب. ولم تكن المسافة بعيدة بين ذلك اليوم والنكسة. فالنكسة قد أهدرت كرامة المصرى والعربى. ولكن المصرى يريد أن يثأر لما كان. فقد كانت الظروف الدولية أقوى. والضغط الداخلى أعنف. وكانت الحسابات كلها مخيفة دقيقة. فقد أخطأت القيادة فى كل شىء..

ومات جمال عبد الناصر دون أن يحصل على ما أراد من الروس. رغم الخدمات الجليلة التى قدمها للروس. مات الرجل دون أن يعطوه ما يجعله قادراً على أن يعيش الأيام القليلة بأمال كثيرة..

وتسلم أنور السادات مصر فى حالة أسوأ مما كانت عليه أيام عبد الناصر. ففى الداخل كانت مراكز القوى تستعد لوراثة عرش مصر بالقوة أو بالحيلة. تقدمها جثة هامدة للسوفيت..

واليوغوسلاف والصينيون أيضاً الذين ترجموا هذه الأوراق وسوف يصدرونها فى كتاب. قد عانوا من روسيا أيام ستالين وأيام خروتشيف أيضاً. وستالين هو الذى قال: من هو تيتو هذا؟ أننى أستطيع أن أسقطه بأصبعى فلا يكون له وجود.

ومات ستالين. وعاش تيتوبطلاً عظيماً. ووصف السادات بأنه من أعظم شخصيات العصر.. أن الرئيس السادات عندما نشر هذه الأوراق لم يتوجه بها فقط إلى أبناء شعبه وإنما إلى الأمة العربية وإلى التاريخ.. يروى ما حدث له وبنفسه. حتى لا تكون هذه الفترة الخطيرة من تاريخ مصر العوبة فى أيدى المؤرخين. وهو شاهد على عصره وصانع لأحداثه وأمين على مسئوليته.. وقصة مصر مع السوفيت نموذجية أو نمطية حدثت فى مصر وقبلها فى الصين ويوغوسلافيا. وسوف تتكرر فى أى مكان آخر. ومن هنا كانت أهميتها فهى: عبرة وعظة.

وهذه هى قيمتها التاريخية والأخلاقية أيضاً!

□ □ □

لا أعرف من أين دخل محيى الدين ابن عربى الفيلسوف الصوفى الأندلسى (١١٦٥ــ١٢٤٠م) مجلس الشعب. من أى باب مع أى مشروع. ولماذا اتخذ مجلس الشعب هذا القرار العاجل المستعجل بتحريم كتابه «الفتوحات المكية». وهذا الكتاب قد طبع فى مصر منذ أكثر من ١٥٠ عاماً.

وابن عربى هذا فيلسوف يرى الكون صورة لله.. ويرى الكائنات مفردات فى قاموس القدرة الالهية. فإذا كانت قدرة الله مطراً فنحن قطراتها، وإذا كانت القدرة شمساً فنحن شعاعها.. والله فى كل شىء وكل شىء. وقد تأثر ابن عرابى بفيلسوف مصرى اسمه أفلوطين، وفيلسوف اغريقى اسمه أفلاطون.. وتأثر به فيلسوف هولندى اسمه اسبنيوزا. وهى قضايا فلسفية أمضينا سنوات طويلة فى دراستها.

وليس جديداً على ابن عربى أن يتهمه أحد بالألحاد والزندقة. فقد اتهمه العلماء فى زمانه. لأنه لا يفرق بين المذاهب والاديان فى تفسيرها لحكمة الله.. وهو يرى أن كل إنسان يحاول أن يهتم وأن يتذوق «التجليات» و«الفيوضات» الالهية.. تستوى فى ذلك الاديان السماوية وغير السماوية. وهذه المساواة بين الاديان هى التى أغضبت منه العلماء.

فما دخل مجلس الشعب بقضية فلسفية صوفية متخصصة جداً، مع أن هناك قضايا شعبية حيوية عاجلة قابلها مجلس الشعب بأغلبية ساحقة من المقاعد الخالية!

ومن العجيب حقاً أن ابن عربى أبا بكر محمد بن على محيى الدين الحاتمى الطائى الاندلسى، قد تعرض للاغتيال فى مصر منذ سبعة قرون!

فهل نهنىء أنفسنا نحن المصريين، على هذا الاصرار على قتل ابن عربى حياً أو ميتاً ـــ!

وإذا كانت هناك نصيحة لأحد فى هذا الموقف الأليم، فأننى اقترح أن يشترى كتاباً للإمام جلال الدين السيوطى فى دفاعه عن هذا الفيلسوف المتصوف.. الكتاب عنوانه «تنبيه الغبى فى تبرئه ابن عربى» ـــ والله أعلم!

● ● ●

في هذا العام تمر مائة سنة على ميلاد اثنين من أشد الأعداء هما: ستالين وتروتسكى. وتنشر الصحف والمجلات العالمية كيف اغتال ستالين رفيق الطريق ليون تروتسكى. وتنشر الصحف أيضاً مذكرات خروتشيف الزعيم السوفيتى الفلاح الذى عاش أمياً حتى الثلاثين من عمره، ثم علمه الحزب القراءة والكتابة حتى أصبح زعيماً لروسيا.

وعلى طريقة السوفيت اغتالوا هذا الرجل حياً. تآمر عليه برجنيف وكوسجين وبودجورنى وأطاحوا به.. فوجد الرجل نفسه قعيداً فى احدى الحدائق العامة ومن حوله بعض احفاده.. ونشرت الصحف أنه مات هادئاً مطمئناً راضياً بما حققته الثورة السوفيتية من انجازات فى العالم كله.

أى أنهم لم يقتلوه. وإنما هو الذى مات من شدة الفرح!

وكما فعل خروتشيف بستالين فعل برجنيف بخروتشيف. والفلك دوار. فقد محا خروتشيف اسم ستالين من كل دوائر المعارف ومن كل الكتب.. وكانت هناك مدينة اسمها ستالنجراد، غيروا اسمها أيضاً.. وكذلك فعل برجنيف بسلفه العظيم خروتشيف. وكل الذى عابه برجنيف على خروتشيف قد وقع فيه. فقد عاب عليه أنه انفرد بالسلطة. ولذلك جاء برجنيف واثنان آخران يحكمون روسيا.. ثم أطاح برجنيف بالاثنين الآخرين وأصبح هو رئيس الدولة، سكرتير عام الحزب الشيوعى، القائد الأعلى للقوات المسلحة، وربهم الأعلى، وحامل جميع نياشين لينين..

والصراع الدائر الآن حول فيتنام هو صراع الأسماك الكبيرة والصغيرة فى بحر الماركسية اللينينية: روسيا والصين وفيتنام. وإذا كانت روسيا هى «أم» الشيوعية، فإن الصين هى «دادا» الشيوعية.. أما فيتنام فهى التى تقوم بدور اليتيم على مائدة اللئيم.. والعالم يتفرج على الاساليب المختلفة للشيوعية فى قضائها على نفسها بنفسها!

رأيت فى مدينة كولمبو بسرى لانكا عدداً من الرهبان الهنود يمشون حفاة على النار التى درجة حرارتها ٣٠٠ مئوية. ولم يضعوا دهونا أو مواد عازلة فى أقدامهم. وعندما خرجوا من النار طلبوا إلينا أن نلمس أقدامهم لنرى إن كانت النار قد تركت فيها أثراً. فلم نر.. وسبقنا إليهم عدد من العلماء الامريكان والألمان.. هذا يقيس الضغط وذاك الحرارة.. ثم يسارعون بالكشف عن المعدة وعن قاع العين..

بقى أن نفهم لماذا لاتحترق أقدامهم والتفسير طويل. ولكن يمكن إيجازه هكذا: فى داخل الجسم الإنسانى قوة هائلة على التحمل. وفى داخل العقل الإنسانى، الشعور واللاشعور، قدرات ضخمة معطلة. فإذا أفلح الإنسان فى تنشيطها واستدعائها بصورة منظمة فإنه يستطيع كل شىء. فالله خلق الإنسان على صورته. والله سبحانه لانهاية لقوته، والإنسان قوى جداً أقوى وأعظم واروع مما تتصور. ولكن نحن لا نجرب ذلك.. وكنا فيما مضى نرى «الرفاعية» يضعون المسامير تنفذ من جانب من الوجه إلى الجانب الآخر.. وترى الواحد منهم قد وضع السيف فوق بطنه، ونفذ من ظهره فإذا خرج السيف يكون لامعاً نظيفاً ليست به قطرة دم واحدة.. ودون أن يترك أثراً واضحاً فى البطن أو الظهر. كيف؟ ليس إلا هذا التفسير الذى يقول به الهندوكيون واتباع مدرسة «الزن» اليابانية، وهى مثل كل شىء فى اليابان هى نفس المذهب القديم بعد أن ادخلوا عليه التحسينات!

واستخدام المغناطيس فى علاج الإنسان كما يفعل د. بارون فى

باريس ليس إلا تصحيح مسار المغناطيس الموجود فى الإنسان مضافاً إليه رغبة الإنسان القوية فى الشفاء. وعلى ذلك فالصحة = إرادة الصحة + اثارة قواه الكامنة المائلة + تصحيح مسارها من الخارج!

ونحن نلاحظ فى حياتنا العادية أن الواحد منا يذهب إلى الطبيب موجعاً فلا يكاد يدخل العيادة أو يجلس إلى الطبيب حتى.. يخف الألم أو يزول..

وماذا حدث؟ الجواب: لقد شجعك الطبيب على أن تريد الصحة لنفسك.. فكانت لك الصحة.. بعض الوقت أو كل الوقت!

■ ■ ■

كان أهل هونج كونج يسخرون من اصرار الصين على استعادة جزيرتهم بالذوق أو بالقوة. أما بالذوق فهو عن طريق التفاوض مع بريطانيا. وقد تفاوضت وسوف يستردون جزيرتهم قبل نهاية القرن. أما القوة فمستحيل لأنه لايوجد مكان يوقفون فيه سياراتهم ودباباتهم ـ فالجزيرة مكدسة بالمشاة والسيارات ولا موطىء لقدم.

ولا ينافس هونج كونج إلا بعض شوارع مدينة الجيزة. واختر لنفسك شارعاً أو شارعين رئيسين وسوف تلاحظ أن تصلب الشرايين قد أصابها.. أى يترسب فيها الكلوسترول على الجانبين وبذلك تكون حركة الدم من القلب وإليه ضعيفة جداً.. نفس الشىء فى الشوارع: العربات على الجانبين ولا أحد يقول لأحد لماذا أنت هنا.. بل إننا نسمع عجباً أن هذه السيارات بموافقة واتفاق تام.. أو بعبارة أوضح: أى أن العطلة وسد الشوارع بعلم ومباركة من الضابط فلان الفلانى. ولا أميل إلى تصديق ذلك. ولكن ثبات هذه الحالة يؤكد ذلك. فرجل المرور، ان ظهر، يمر على السيارات وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ـ كأنه!

شىء عجيب أن تتحول الشوارع إلى مواقف للسيارات. وأن يتجول رجال المرور معجبين بذلك. ويكون معنى «الانضباط» هو انضباط رجال المرور. يمرون كل يوم، أن فعلوا، ولايرون مخالفات فى الشارع. وإذا وجدوا المرور واقفاً، وقفوا، وإذا وجدوه متحركاً تحركوا. وإذا سمعوا اجهزة التنبية أطلقوا هم أجهزة التنبيه وانطلقوا.. وهم بذلك يسايرون الشارع وحركة الشارع، أو انعدام الحركة.. وهكذا بدلا من أن يحركوا

الشارع فإنه قد قيدهم، بدلا من أن يضبطوه فقد اعتقلهم.. وهكذا مادامت الشوارع لم تعد شوارع، فالمرور لم يعد مروراً.

وبعض الناس الواقعيين المنصفين يرون أن «دور» المرور لم يأت على الجيزة.. فالحركة قد بدأت فى القاهرة والانضباط أيضاً. وإذا نجحت هذه التجربة الصادقة المخلصة فى العاصمة الكبرى. فليس بعيداً أن تنتقل عدواها إلى الجيزة.. وربما إلى قلب الاحياء الشعبية فى القاهرة..

وإن كان من رأيى أن الانضباط يبدأ فى البيت.. أى أن الإنسان ينزل من بيته منضبطاً اخلاقياً وعملياً ولذلك فالانضباط غير «الضبطية» ليست من مهام وزير الداخلية وحده ـ ولكن كل الوزراء والبيوت والمدارس والمساجد!

□ □ □

صدر كتاب اسمه «صفحات من التاريخ الأدبى لتوفيق الحكيم من واقع رسائل ووثائق». وهو يضم عدداً من الخطابات أرسلها وتلقاها. فأعاد نشرها وعلق عليها موضحاً ما جاء فيها.. إلا أنه لم يفعل ذلك فى حالة واحدة. فقد تلقى خطاباً من العقاد يشكره على كتاب بعث به الحكيم.. وفسر الحكيم ذلك بأنه كان قد أرسل للعقاد مسرحية «يا طالع الشجرة» فلم تعجب العقاد. وعاد فأرسل إليه كتاباً آخر يحبه عوضاً عن هذا الكتاب الذى لم يحبه.. وكان هذا الكتاب المحبوب مجموعة من المقالات روى فيها الحكيم أن عدداً من المساجين نقلوهم فى السلاسل إلى رأس البر ليروا الحكيم وكان وكيلاً للنيابة فى ذلك الوقت، فأطعمهم الحلاوة الطحينية على حسابه — والذين يعرفون الحكيم يرون أن هذه تضحية لاتحدث كثيراً إلا فى ظروف لها شكل الفضيحة!

وقال الحكيم فى توضيح رسالة العقاد أن العقاد وطه حسين قد أبديا رأيهما بأشكال مختلفة وسخطهما على مسرحية «يا طالع الشجرة» سنة ١٩٦٣. ولم يشأ الحكيم أن يقول حقيقة ماحدث..

والذى حدث هو أننى جمعت بين العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفونى واحد. وكنت أسأل العقاد، وأعود أسأل طه حسين ثم أسأل رأى الحكيم فيما قال الاثنان. وانقل ما قاله الحكيم للعقاد.. ثم لطه حسين، وأعود للحكيم مرة ثانية.. ودارت هذه المحادثة الفريدة أكثر من أربع ساعات ثم نشرتها بعد ذلك. فلم يحدث أن ألتقى الثلاثة حول موضوع واحد هو. أدب اللامعقول الذى خرج به الحكيم على الناس فى مصر،

وإن كان معروفاً فى أوروبا منذ أكثر من ثمانين عاماً .. ثم اتخذ صورة صارخة فى العشرين عاماً الاخيرة ..

أما الذى لا يعرفه الحكيم الآن، وتعرفه السيدتان صفية المهندس وسامية صادق فهو أن الحديث التليفونى للحكيم مسجل على شريط طوله ساعتان. وفى هذا الشريط آراء للحكيم فى كل خلق الله من الكتاب والشعراء والمطربين .. وأن الحكيم قد استخدم عبارات لا يجرؤ عليها «حماره» ثم كان أكثر أيلاماً من «عصاه» إذا نزلت على أنوف الناس .. وقد سمع العقاد هذا التسجيل وله رأى مسجل أيضاً فى هذا الشريط ..

وأنا احتفظ بهذين الشريطين وديعة عندى إلى حين صدور طبعة جديدة من هذا الكتاب على شكل كاسيت لرسائل الحكيم .. وليس هذا المقال إلا «إعلاناً» عن كتاب الحكيم الذى اصدرته دار المعارف التى أتشرف برئاسة مجلس ادارتها فشكراً لصحيفة الأهرام !

● ● ●

للفلوس عندهم معنى آخر أهم من الفلوس نفسها !

فأستاذنا الكبير توفيق الحكيم أردت أن أريحه فقلت له : سندفع لك أى مبلغ تطلبه إذا وافقت على أن ننشر لك هذا الكتاب .

ورغم أننى جاد فيما أقول فقد أمتعنى توفيق الحكيم بعشرين قصة عن مغامراته فى طلب ما يستحق من مال عن مقالات ومسرحيات وأفلام . وأصر على مناقشتى فى المبلغ الذى سوف أدفعه له .

ومنذ شهر تناقشت مع شاه إيران السابق فى المبلغ الذى سوف أدفعه له إذا نشرت الفصل الجديد الذى كتبه عن ثورة إيران فى مجلة « أكتوبر » . ورغم أنه سيتبرع بهذا المبلغ « للوفاء والأمل » فأنه أصر على ضرورة أن يعرف !

وفى حيفا ناقشنى موشى ديان عن المبلغ الذى سوف ندفعه له لأننا ترجمنا له كتابه « قصة حياتى » فى جزءين ..

وعيزر ڤايتسمان قبل سفره إلى أمريكا تناقشنا فى التليفون عن المبلغ الذى سندفعه له إذا ترجمنا كتابه الجديد عن « السلام » ..

وقبل أن يظهر كتاب كيسنجر عن « سنوات فى البيت الأبيض » جاءنى محاميه يطلب مائة ألف دولار ثمنا لأية فصول تنشرها كاملة أو مختصرة أو فقرات مقتبسة . ثم قدم لى عقداً من ٤٢ مادة !

ويوم جاء الأديب الإيطالى البرتومورافيا إلى مصر فى الخمسينات قلت

له : من محاسن الصدف أن رواية لك قد صدرت ترجمتها اليوم . فأخرج قلماً ليكتب اسم دار النشر المصرية .

ولما عرف أننا لم نوقع على الاتفاقية الدولية لحق الأداء، أسقط قلمه فى جيبه وتراجع فى مقعده أما الذى على وجهه فهو خليط من القرف والاستنكار.

ورغم أننى قلت لكل هؤلاء الكبار أن نصيبهم لايتجاوز المائة جنية جميعا فأنهم قد أصروا عليه لأنه حق لهم ، وواجب علينا .

ورغم ذلك فإننا فى مصر لاندفع لأحد من هؤلاء شيئاً !

لايعجبنى من المسلسلات الإسلامية فى رمضان أنها تقوم على مجموعة من المفهومات الخاطئة. وقد كتبت عنها هنا أكثر من مرة.

لم أجد أحداً يقنعنى بأن كل ماهو مصرى يجب أن يكون مثيراً للسخرية والهوان. فالآن ترى اليهود وفرعون يضطهدهم تمهيداً للخروج من مصر. وهذه حقيقة تاريخية. ولكن كيف يتم تصوير هذه الحقيقة؟ نجد أن اليهود أخف دماً وأكثر احتراماً. ونساؤهم أجمل وأشيك. ولابد أن يكون المعنى عندنا هو: خفة الدم سفالة، وأن الجمال دعارة. وأن الوقار تشنج وأن الحكم هلوسة ــ ويكفى أن تنظر إلى الملوك والوزراء المصريين القدماء!

وهذه المسلسلة هى مقدمة للإسلام. ولكنها مقدمة طويلة جداً. وليس لها مبرر فى شهر رمضان..

وكذلك نرى أن كل من هو مسلم أو يحاول أن يكون كذلك هو إنسان مهووس مخبول. عيناه زائغتان فى بلاهة، وحركاته «مسطوله».. ولم نعرف فى التاريخ أن الذين حول الرسول ويحفظون كلماته وحركاته وأحاديثه وآيات الله، كانوا على هذه الدرجة من البلاهة. إذن فلماذا نجعل المسلمين أو المؤمنين بهذا الانحطاط السلوكى والنفسى والعقلى؟

وقد اشرت قبل ذلك إلى أن الكفار فى المسلسلات الدينية كان رجالهم أذكى والطف ونساؤهم أرق. فما هو المعنى؟

ولن أتعب من تكرار أن اللغة التى تستخدم فى المسلسلات جافة غليظة خشنة . وأن هذه الحفاوة بالخشونة لايعادلها إلا الحفاوة بألوان الأزياء وفخامتها وأناقتها . واعتقد أن اللغة والأزياء بعيدان تماماً عن الواقع التاريخى .

وأكثر من ذلك أن التليفزيون مختلف تماماً عن الاذاعة .. اختلاف السينما عن المسرح فالتليفزيون يجب أن تكون حركته وحيويته أوضح ، وحواره أقل وأكثر تركيزاً !

ثم أننا مادمنا قد اخترنا شهر رمضان ، فقد ارتضينا جمهوراً مرهقاً يريد المتعة المفيدة التى لايجدها فى مثل هذه المسلسلات !

■ ■ ■

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حــرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel: 756421